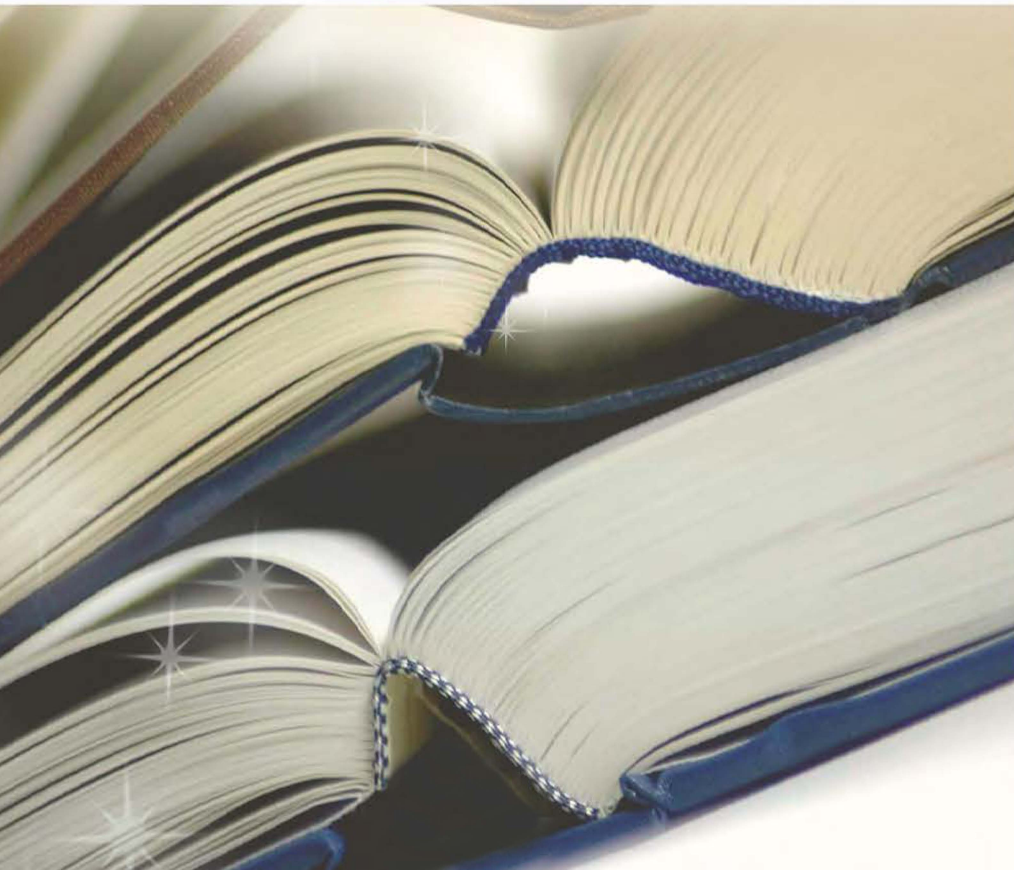
[redacted]

في الشعر العباسي

تحليل وتذوق

د. إبراهيم عوض



في الشعر العباسي

تحليل وتذوق

د. إبراهيم عوض

المنار للطباعة والكمبيوتر
ت/ ٠٢٢٩٦٤٨٤٤

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

فيما يلى إحدى عشرة قصيدة لعدد من أكبر شعراء العصر العباسى وأشهرهم . وقد رُوعى فى هذه القصائد تنوع المواضيع بقدر الإمكان : فبعضها فى المديح ، وبعضها فى الغزل ، وبعضها فى الرثاء ، وبعضها فى الوصف ... ، وذلك حتى يأخذ القارىء فكرة عن الشعر العباسى فى موضوعاته الرئيسية .

ويتلو كلَّ قصيدةٍ من هذه القصائد الإحدى عشرة تحليلٌ نقدىٌ لها مهمته أن يساعد القارىء على تذوقها والتنبه إلى ما فيها من محاسن ومآخذ . وكل تلك القصائد تقريبًا هى من غرر الشعر العربى فى ذلك العصر بل في تاريخه أجمع . ويكفى أن نذكر منها مثلا المقدمة الخمرية الغزلية لرائية مسلم بن الوليد ، ورثاء ابن الرومى لابنه الأوسط ، وسينية البحترى ، وميمية المتنبى فى معاتبة سيف الدولة وتهديده بالرحيل عنه إلى كافور . بل ليس فى الأمر أية مبالغة إذا قلنا إنَّ عددًا من هذه القصائد يعزّ أن نجد نظيرًا له فى الآداب العالمية

وسوف يلاحظ القارىء أننى فى تحليل القصائد المذكورة قد ضربت صفحًا عن استخدام المصطلحات النقدية والبلاغية إلا فى الندرة . ذلك أن هدفى هو الأخذ بيد من يحبّ نحو تذوّق الشعر وإبصار نواحى الجمال فيه وكذلك نقاط الضعف التى لا يخلو منها عمل بشرى . وهذا الهدف يمكن أن يتحقق ، بل قد تحقق فيما أعتقد دون إثقال كاهل القارىء بمصطلحات الأدب ونقده . والله ولىّ التوفيق .

بشار بن برد يمدح عمر بن هبيرة

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطيّ ، حمرٌ ثعالبُهْ
غدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا ، والطلّ لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعْمَه ... وتدرك من نجّى الفرارُ مثالبُهْ
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تَهاوَى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة . إننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا : فريق فى الإسار ، ومثله ... قتيل ، ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ
إذا الملك الجبار صعَّر خدَّه ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
إذا كنتَ فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صِلْ أخاك ، فإنه ... مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبُه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت . وأى الناس تصفو مشاربه ؟

هذه الأبيات الجميلة القوية مقتطَعة من قصيدة طويلة مدح فيها الشاعرُ عمرَ بن هبيرة والى العراق . وسنتناول هذه الأبيات منفصلة عن بقية القصيدة . فما الذى نلاحظه عليها ؟

أول ما يلاحَظ هو أنها تنقسم من حيث الموضوع إلى قسمين واضحين : فالأبيات السبعة الأولى فى وصف حربٍ المفروض أنها دارت بين قوم الشاعر وأعدائهم . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فهى فى الحكمة ، وتدور حول ضرورة المصانعة أحيانا فى العلاقات الإنسانية حتى تستقيم الأمور وتستمر عجلة الحياة الاجتماعية فى الدوران . وأبيات كل قسم ، وإن ترابطت فيما بينها ترابطا قويا ، لا تتصل بأبيات القسم الآخر لا من قريب ولا من بعيد ، إذ النقلة من جو الحرب والتقتيل إلى

ما ينبغى على الصديق تجاه صديقه من الاغضاء عن زلاته بين الحين والحين حتى يستبقى صداقته ويستطيع الاستمتاع بها ، فإن الحياة لا تصفو تماما لأحد ، نقلة غير مسوَّغة ولا مستساغة . وأحب أن أكرر القول إن الانتقاد هنا منصب على الانتقال ، لا على شعر كل قسم فى حد ذاته ، فإن الشعر قوى جميل ، كما سلف القول وكما سيأتى تفصيله فيما يلى :

فى الأبيات السبعة الأولى يفتخر الشاعر بانتصارات قومه على أعدائهم ، برغم كثرة عَدَدهم وعُدَدهم ، حتى إنهم ليسدون الأفق بجحافلهم ، فيبدو الكون وكأن الظلام قد أقبل وسربل الأشياء بردائه الأسود . والشاعر يشدد على فكرة الحتمية فى هذه الانتصارات . أليس هو وقومه ، كما يقول ، « بنى الموت » ؟ وهؤلاء الأعداء ينتهى أمرهم دائما معهم إما إلى القتل وإما إلى الأسر وإما إلى الفرار ، الذى يلاحق الناجين خزيُه إلى الأبد . ويخلص الشاعر من ذلك كله إلى تهديد كل من تسول له نفسه بالشموخ عليه وعلى قومه ، وتوعُّده بأن مصيره سيكون مصير هؤلاء الأعداء .

فهذه الأبيات كما ترى مترابطة من جهة الفكرة ، ومن جهة الجو النفسى الذى يسودها ، بل من ناحية الصور الفنية كذلك : فقد صور الشاعر جيش الأعداء فى زحفه بجحافله التى تماثل الحصى والشوك عددًا ، وقد سد الأفق فحجب ضوء الشمس كأنه قطعة من الليل

نفسه :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك .... إلخ

وحين يتناول الشاعر وصف المعركة نفسها ، وقد التحمت الأبطال ، وثار النقع وارتفع إلى عنان السماء ، وامتُشِقت السيوف لتهوى ، وهى تبرق ، على رؤوس الأعداء تطيح برقابهم ، نراه يقول إن من يشاهد هذه المعركة الطاحنة يخيَّل إليه ألا نهار ولا شمس ولا ضياء ، بل ليل دامس الظلمة ، تخرج كواكبه عن مداراتها ، وتتهاوى فى الفضاء . وهى صورة قوية التأثير ، عظيمة البراعة . ومن التجنى أن نقارن بينها وبين قول امرىء القيس فى وصف عقاب مفترسة :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنّاب والحَشَفُ البالى

فضلا عن أن نفضل بيت امرىء القيس عليه ، كما فعل بعض النقاد ، فصورة امرىء القيس صورة شكلية ، إذ وجه الشبه بين قلوب الطير التى افترستها هذه العقاب وبين العُنّاب إذا كانت لا تزال طازجة ، وبينها وبين الحشف البالى إذا كان قد مر عليها وهى ملقاة عند وكر الطائر الجارح وقت طويل ، هو مجرد تماثل فى الشكل واللون ، ثم لا شىء وراء ذلك ، أما بيت بشار فإن الصورة فيه مركبة ، إذ على عكس العناب والحشف البالى فى بيت امرىء القيس اللذين لا رابط بينهما ، نرى الليل والكواكب المتهاوية لا يمكن تصورهما منفصلين بل يكوّنان معا لوحة واحدة مرعبة ، وكأن القيامة قد قامت ، فذهب الضياء ، وأخذت أجرام

السماء تنخلع من مداراتها ، وتهوى فى الفضاء . أى أنه إذا كان جيش الأعداء يشبه قطعة من الليل بكثرة عَدَده وعُدَده ، فإن قوم بشار هم الهول نفسه ، ومن يجرّبهم ويحاربهم فكأن قيامته قد قامت ، وكأنه يشاهد بأم عينيه الكون وقد اضطرب نظامه ، وانفرطت أجرامه . ويبدو لى أن بشارا لابد أن يكون قد استوحى هذه الصورة عن وعى أو غير وعى ، من الآيات القرآنية التى تتعرض لوصف يوم القيامة ، من مثل قوله تعالى : « إذا الشمس كُوِّرت * وإذا النجوم انكدرت » ، وقوله سبحانه : « إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت » .

هذا ، وما أجمل الصورة التى رسمها الشاعر للشمس وقد برزت لتوها من خلف الأفق ، كأنها غادة حسناء مازالت تعيش فى كنف أمها ، فهى فتاة منعمة لا تقوم على شؤونها بنفسها ، ولكن أمها ترعاها ، وهى تطل على قوم الشاعر من خدر أمها وقد استيقظت لتوها من رقادها :

غدونا له والشمس فى خدر أمها تطالعنا .... إلخ

ولا يظن ظان أن هناك تناقضا بين جو الليل الذى رسمه الشاعر فى البيت الأول ، الذى يصف فيه زحف جيوش الأعداء ، وفى البيت الرابع ، الذى يصور فيه هول اللقاء على هؤلاء الأعداء ، وبين جو الصبح الذى يتنفس فى بكرته ، والشمس تطالعهم من خدرها ، أو كما قال الشاعر : « من خدر أمها » ، فإن الجو المشرق يتلاءم مع ما لعل الشاعر يريد أن يقرره فى نفوسنا من ثقة جنود قومه بأنفسهم ، إذ إن

زحفهم لملاقاة أعدائهم لا يعدو أن يكون نزهة للاستمتاع ، وها هى الشمس غادة حسناء تطل عليهم من شرفتها ، وكأنها تحييهم وتتمنى لهم ظفرا مبينا . ولا تَفُتْك هذه التفصيلة الواقعية التى توحى هى أيضا بالبكور : « والطلّ لم يجر ذائبه » . كما أحب ألا تفوتك أيضا طرافة التعبير فى هذه الجملة ، إذ المعتاد أن يقال : « والطل لم يذُبْ بعد » ، أو ما أشبه . أما قوله : « لم يجر ذائبه » فهو تجديد ألحقه الشاعر بتعبير من التعبيرات العادية .

وفى هذا الوقت المبكر والجو المشرق نرى قومِ الشاعر يغدون على أعدائهم فيفاجئونهم :

بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعْمَه   وتـدرك مـن نجّـى الفرارُ مثالبُـهْ

فتأمل كيف عدل الشاعر عن أن يقول مثلا « بضرب مميت » ، بما فيه من مباشرة وافتقار إلى الفن ، إلى قوله « بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمه » ، إذ إن هـذا الضرب له طعم الموت ، بل إن طعمه هو الموت نفسه .

ويعود الشاعر بعد ذلك ببيت فيلح على معنى المفاجأة :

بعثنا لهم موت الفجاءة . إننا   بنو الموت ، خفّاقٌ علينا سبائبُهْ

ويا لها من صورة غريبة ! إذ كيف يُبْعَث الموت ، والبعث حياة ؟ ترى هل قصد الشاعر إلى القول إن هؤلاء الأعداء كانوا فى غفلة عما هم ملاقوه من مصير محتوم ، فكأن الموت بالنسبة إليهم كان أمرا منسيا ، أو كأن

الموت قد مات ، فجاء قوم الشاعر فبعثوه لهم ؟ ثم يمضى الشاعر فيصف نفسه وقومه بأنهم « بنو الموت » ، فمن ذا الذى يستطيع الانتصار على قوم الموتُ أبوهم ؟ وهل يطيع الموتُ أحدا فى أبنائه ؟ ليس ذلك فقط ، بل إن رايات الموت تخفق فوق رؤوسهم . ترى أيستطيع أحد أن يتصدى لجيش يحارب تحت رايات الموت ؟

وعلى هذا فالنتيجة معروفة ، فمن تسول له نفسه الوقوف فى طريقهم فمصيره المحتوم هو القتل ، وإلا فالأسر أو اللواذ بالفرار . وما أحلى تنويع الشاعر فى الإشارة إلى هذه المصائر الثلاثة :

فراحوا : فريق فى الإسار ، ومثله   قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه !

إذ بدلا من أن يقول : « فريق من الاسار ، وفريق قتيل ، وفريق لاذ بالبحر هاربه » ، نجده قد تجنب التكرير فقال أولا : « فريق » ، ثم فى المرة الثانية قال : « مثله » ، ثم حين كرر هذه فى المرة الثالثة نراه قد حذف الهاء ، فأصبحت منكرة ، وأصبحت كأنها كلمة أخرى

وانظر التهكم الواثق فى قول الشاعر :

إذا الملك الجبار صعّر خدّه   مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

إذ العتاب لا يكون بالسيوف ، ولكنه التهكم ، الذى يبلغ به الشاعر غايته حين يصف الثورة على استبداد مثل هذا الملك بأنها « مَشْىٌ إليه » . إن الشاعر هنا لا يهدف ، كما ربما تبادر إلى الذهن ، إلى التهوين من شأن وقوفهم فى وجه السلطان وثورتهم عليه والإحاطة برقبته ، ولكنه يريد أن

يقول إن التخلص من مثل هذا السلطان سهل لا يحوجنا إلى أكثر من أن « نمشى إليه لنعاتبه » . ولكن أى عتاب !

أما الأبيات الحِكْمية الثلاثة فهى من أجمل ما قيل فى الإغضاء عن هفوات الأصدقاء ، فالكمال ، كما توحى هذه الأبيات ، ليس من طبيعة البشر . وما أجمل قول الشاعر عن صديقه : « إنه مقارفُ ذنّبٍ مرة ومجانبُه » ! فهو لا يقول : « إنه مقارف ذنب مرة ، وفاعل خير مرة أخرى » ، بل « ومجانبه » ، بما توحى به من أن النقص هو الأصل فى طبيعة البشر ، لدرجة أنه يكفى أن يتجنب الناس فعل الشر ! وما أجمل كذلك إيجاز الحذف حين لم يكرر كلمة « مرة » بعد « ومجانبه » ! ومع ذلك فإنه لا الأذن ولا العقل يحس بنقص فى الجملة ، وبخاصة أن هذا الحذف قد وقع فى آخر البيت ، حيث تأتى موسيقى القافية فتَشْغَل عنه . ثم إن العلاقات الاجتماعية لا تتحمل التشدد فى المحاسبة بين الأصدقاء ، وإلا ما كانت صداقة ولا أصدقاء . وهل نستطيع أن نعيش منعزلين عمن حولنا ؟ إن الانسان مدنى بطبعه ، كما يقولون ، ومن نشد الكمال فيمن يعاشرهم فهو كالعطشان الذى يريد الماء صافيا على الدوام تمام الصفاء ، فأى الناس تصفو موارده ؟ إن مثل هذا المتشدد سوف يظل طول عمره ظامئا لا تنطفى له غُلّة .

السيد الحميرى يحرض المهدى

قل لابن عباس سميّ محمد : لا تعطينَ بنى عدىّ درهما
احرم بنى تيم بن مُرةَّ . إنهم شر البلية آخرا ومقدَّما
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة ويكافئوك بأن تُذم وتُشْتَما
وإن ائتمنتهمو أو استعملتهم خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهمو لقد بدءوكمو بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تراثَ محمد أعمامَه وبنيه وابنته عديلةَ مريما
وتأمَّروا من غير أن يُستَخْلَفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه أفيشكرون لغيره إن أنعما ؟
واللهُ منّ عليهمو بمحمد وهداهمو وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات فجرعوه العلقما

هذه الأبيات العشرة قد أرسلها الشاعر إلى الخليفة المهدى حين كان لا يزال وليا للعهد يحرضه فيها على ذرية أبى بكر وعمر ، أو كما قال هو : « بنى تيم » و « بنى عدى » ، فهم كما وصفهم شر الناس ، وإذا أعطاهم فلن يحفظوا له جميلا ، بل بالعكس سيكون جزاؤه منهم الذم والسب ، وهم إذا استعان بهم فى أعمال الدولة اختلسوا الأموال ، وكيف لا ، وأجدادهم قد هضموا آل محمد حقوقهم ، فحرموهم من وراثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، هذا الرسول الذى هداهم الله به ، وأخرجهم من الفقر إلى الغنى على يديه ؟

والملاحظ أن الشاعر هنا يلوى عنق الحقائق التاريخية ، فإن أبا بكر وعمر لم يكونا من شرار البرية ، بل كانا غرتين فى جبين الاسلام

والإنسانية ، ولقد أديا للدين خدمات عظمى ما أظن أحدا غيرهما ، إلا فى الندرة النادرة ، أدى مثلها . وإن أبا بكر وعمر لم يحرما آل الرسول عليه صلوات الله شيئا من حقوقهم . وإذا كان الشاعر يقصد بالميراث هنا ميراث الحكم والولاية على المسلمين فلا أظن عاقلا يعتقد أن الإسلام يقول بتوارث الزعامة الروحية أو السياسية ، بل يتولى أمورَ المسلمين أصلحُهم لذلك ، وأقواهم عليه ، وأنهضهم بالعبء الفادح . ولا أظن كذلك عاقلا يتهم أبا بكر أو عمر ، على رغم إكبارنا نعلى وإجلالنا لدوره العظيم فى خدمة الاسلام والمسلمين ، بأنهما كانا أقل من منصب الخلافة ، بل على العكس قد ازدانت بهم الخلافة أيما ازديان ، وحكمهما هو أعدل حكم عرفته الحياة السياسية فى كل العصور ، بعد حكم الرسول عليه السلام ، الذى كان نسيج وحده بين الأنبياء ، بله البشر ! ولو كانا همهما اغتصاب السلطان لقد كانا قادرين على أن يفعلا ما فعله بنو أمية من بعدهم ، وبنو العباس ، الذين ينافقهم الشاعر فيجعل لهم حقا فى وراثته للرسول ، مع أن الشيعة فيما نعلم لا تسلم لهم بذلك ، إذ يقول :

منعـوا تـراث محمـد أعمامـه .... إلخ

ومن قبل ذلك يقول :

قـل لابـن عبـاس سمىّ محمـد .... إلـخ

فيسمى المهدى « ابن عباس » وكأنه الصحابى الجليل ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم « عبد الله بن عباس » . وهذه إن ساغت فلا أظن

قوله عقيب ذلك عن المهدى إنه « سميّ محمد » يسوغ ، فقدر الرسول محمد أعلى من قدر المهدى . ولاحظ أنه سمّى الرسول أربع مرات « محمدا » فى هذه الأبيات ، أما حين أراد أن يشير إلى على فإنه لم يصرح باسمه عاريا على هذا النحو بل سماه « وصيّه » و « وليّه » .

ومن فساد المنطق أن يقول الشاعر إن أبا بكر وعمر قد توليا الخلافة من غير استخلاف . وهو يقصد أن الرسول لم ينص نصا على أن يتوليا الحكم من بعده . فهل نص الرسول على أن يتولاها أحد آخر ؟ لقد ترك الرسول الأمر شورى للمسلمين . وقد اختاروا أبا بكر أولا ، ثم اختار أبو بكر عمر ليخلفه ، ورضى المسلمون هذا الاختيار . وعلى أية حال ، فقد كان حكمهما خيرا وبركة على المسلمين ، ولا يعرف التاريخ أنهما احتجنا لنفسيهما أو لأهليهما ما ليس لهم بحق .

أما قول الشاعر إن « الله منّ عليهم بمحمد وهداهم » فهل هناك من ينكر ذلك ؟ ولكن لاشك أن فى قوله فى أعقاب ذلك « وكسا الجُنوب وأطعما » ما قد يوحى أن أبا بكر وعمر قد استفادا من الاسلام استفادات مادية نقلتهما من حال الفقر إلى حال الغنى ، ولولا الاسلام لماتا من جوع وعرى ، مع أننا نعرف أن أبا بكر قد أنفق كل ماله أو معظمه لنصرة الاسلام ورسوله ، وعمر لم يقصر هو أيضا فى هذا السبيل . كما كانا ، حين توليا الخلافة ، شديدى التحرج فى تصريف أموال المسلمين . ثم إنهما لم ينظرا قط إلى خزانة الدولة ولا أعمالها على

أنهما خزانتهما وأعمالهما الشخصية . أما الشاعر فإنه يجعل مال الدولة ومناصبها كأنها ملك شخصى للمهدى ، وذلك حين يقول له إن بنى عدى وبنى تيم بن مرة لن يشكروا « لك » نعمة ، وسيتخذون « خراجك » مغنما ، وإنك ان استعملتهم فى مناصب الدولة « خانوك » . فالخراج ، كما ترى ، ليس خراج الأمة ، والخيانة لن تكون فى حق الأمة ، بل فى حق المهدى نفسه . فانظر إلى هذا المنطق المعكوس ، وكيف تسول للشاعر نفسه بعد ذلك كله الهجوم على أبى بكر وعمر وذريتهما من بعدهما .

إن هذه الأبيات هى نفثة حاقد قد أعماه الحقد المذهبى عن الصواب والحقيقة .

أما من الناحية الفنية ، فهذه القصيدة القصيرة متماسكة الأبيات تعالج فكرة واحدة ، وكلّ بيت فيها يسلم إلى تاليه على نحو جد طبيعى . والأسلوب فيها بسيط قد أُرْسِل ارسالا بلا أى تكلف . وليس فيها غير ذلك شىء يلفت النظر بخاصة ، سوى ما يلاحَظ من انتشار التثنية فى كل أبياتها ، مما يعطى انطباعا بالتوازن : فالشاعر يذم « بنى عدى وبنى تيم بن مرة » . وهما شر البلية « آخرا ومقدما » . وسوف تكون مكافأة المهدى على أيديهم هى « أن يُذَمَ ويُشْتَما » . وهو إن « ائتمنهم أو استعملهم خانوه واتخذوا خراجه مغنما » . وهم « منعوا تراث محمد أعمامه وبنيه ... إلخ وتأمَروا من غير أن يُستَخْلَفوا » .

« والله قد منّ عليهم بمحمد وهداهم » . وفى اشارته إلى على يقول إنه « وصيّه ووليّه » . ولست أدرى أقصد الشاعر إلى هذه التثنية التى تشيع فى كل الأبيات ، كما سلف القول ، أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة . أيا ما يكن فإن هذه التثنية تعطى انطباعا بالتوازن ، إلا أنه ليس هو التوازن المتعمل الرتيب ، لأنه لا يجرى على وتيرة واحدة ، ولا هو يظهر للأذن أو العين لأول وهلة .

أبو نواس يمدح العباس حفيد المنصور

أيهـــا المنتـــاب عــن عُفُـــرِهْ ... لســتَ مــن لَيْلِى ولا سَمَـــرِهْ
لا أذود الطيـــر عـــن شجـــر ... قـــد بلـــوتُ المــرَّ مــن ثمــره
قـــد لبســت الدهــر لبــس فتًى ... أخَـــــذ الآدابَ عـــن غيَــــرِهْ
فاتصـــل ان كنـــت متصـــلا ... بِقُـــوَى مــن أنــت مــن وطــره
خِفْـتُ مأثـور الحديـث غـــدا ... وَغَـــدٌ أدنــــى لمنتظـــرِه
خـــاب مـــن أسرى إلى بلـــد ... غيـــر معلـــوم مـــدى سَفَـــرِهْ
وسَّدَتْـــــهُ ثِنْــــيَ ساعـــــدِهِ ... سِنَـــةٌ حلَّـــت إلى شُفُـــرِهْ
فامـــض لا تمنُـــنْ عليَّ يـــدا ... مَنُّـــك المعـــروفَ مـــن كـــدره
رب فتيــــــانٍ ربأتهمـــــو ... مَسْقَـــطَ العيُّـــوقِ مــن سحــره
فاتَّقَـــوا بـــى مـــا يريبهمـــو ... إنَّ تَقْـــوَى الشـــر مــن حــذره
وابــــن عــــمٍّ لا يكاشفنـــا ... قـــد لبسنـــاه على غَمَــــرِهْ
كَمَـــن الشنـــآن فيــــه لنـــا ... كَكُمــون النـــار فـــى حَجَــره
ورضـــاب بـــــت أرشفـــه ... ينقـــع الظمـــانَ مـــن خَصَــره
علّنيـــــه خُـــــوطُ أسحلـــة ... لان متنــــاه لمهتصـــــره
ذا ، ومغبــــــرٍّ مخارمُـــــه ... تَحْسِـــر الأبصـــار عـــن قُطُـــره
لا تـــرى عيـــنُ البصيـــر بـــه ... مـــا خـــلا الآجالَ مـــن بقـــره
خـــاض بـــى لُجَّيْـــه ذو جـــرزٍ ... مُقْفِـــرُ الصُقْلَيْـــن مـــن ضُمُـــرِهْ
يكتســـى عُثْنونُـــــه زَبَـــدًا ... فنصيــــلاه إلــــى نُخَــــره
ثـــم يعتـــمُّ الحِجـــاجُ بـــــه ... كاعتمـــام الفُـــوفِ فـــى عُشَـــرِهْ
ثـــم تـــذروه الريــــاح كمـــا ... طـــار قطـــن الندف عن وتــره
ذُلّلَـــتْ تلـــك الفجـــاج لــــه ... فهـــو مجتـــاز على بصـــره
كـــل حاجاتـــى تناولهـــــا ... وهـــو لم تُنْقَـــضْ قُـــوَى أشَـــره

ثـم أدنانـي إلـى مَلِـك	يأمـن الجانـي إلـى حُجُره
تأخـذ الأيـدى مظالمها	ثـم تستـذرى إلـى عَصَرِهْ
كيـف لا يدنيـك مـن أمـل	مَـنْ رسولُ اللـه مـن نَفَـرِه ؟
فاسْلُ عـن نَـوْءٍ تؤمّلـه	حَسْبُك العبـاس مـن مطـره
مِلِـكٌ قـلّ الشبيـهُ لـه	لـم تقـع عيـن على خَطَـره
لا تَغَطَّى عنـه مكرمـةٌ	بربُـا واد ولا خَمَـره
سبـق التفريـطَ رائـدُهُ	وكفـاه العيـن مِـنْ أثـره
وإذا مـجّ القنـا عَلَقًـا	وتـراءى المـوتُ فـى صُـوَره
راح فـى ثِنْيَـىْ مُفَاضتـه	أسـدٌ يَدْمَـى شبـا ظُفُـرِهْ
تتأيّـى الطيـرُ غدوتَـه	ثقـةً بالشبـع مـن جَـزَره
وتـرى الساداتِ ماثلـةً	لسليـل الشمـس مـن قمـره
وكريـم الخـال مـن يمـن	وكريـم العـمّ مـن مضـره
فهمـو شتـى ظنونُهمـو	حـذرَ المكنون مـن فكَـرِه

هذه القصيدة إحدى قصائد المديح فى العصر العباسى . وهى ، ككثير من قصائد المديح ، لا تقصد مباشرة إلى الغرض الرئيسى منها ، ومن ثم لا تصل إليه إلا بعد مقدمات وتخلصات ، بحيث يأتى المدح فى آخر القصيدة وكأن الشاعر قد عرّج عليه بطريق المصادفة ، بل أحيانا ما يأتى باهتا هامدا لا روح فيه ولا رونق له . وربما كان سبب ذلك أن الشاعر من هؤلاء ، حينما كان ينظم مثل هذه القصائد ، لم يكن يحس بعاطفة إعجاب قوية حقيقية نحو ممدوحه . إنما هو المال والحصول على شىء منه من هذا الممدوح . وأحب أن أقول إننى لا أطيق شعر المديح إلا إذا كان مبعثه عاطفة قومية أو دينية تهتز لإنجاز حربى أو سياسى أو

اجتماعى يعود على الأمة كلها ومستقبلها بالخير الجزيل . أما المديح من أجل الحصول على شيء من المال هو فى الغالب من مال الأمة الذى ائتمنت خليفتها أو أحد ولاته عليه فهو مخزاة من المخازى التى ما كان يجب أن تنشأ في دولة إسلاميه حقيقية ، بله أن تنتشر وتستعِرَ ويمتد أوارها إلى كل مكان على مدى كل هذه العصور المتطاولة . ذلك ، ولا أوافق القائلين إن شعر المديح إنما يرفع أمام أبصار الأمة مُثُل الأخلاق الكريمة ، فإن الأخلاق الكريمة لا يخدمها الكذب واللهاث وراء حفنة من المال الحرام ليس لواهبها ولا لموهوبها حق فيها ! ثم إن معانى المديح هى فى الغالب معان تقليدية محفوظة قد أفقدها التكرار رواءها وبهاءها ، فإذا أتى من الشعراء من يريد أن يضيف إليها جديدا كان تجديده محصورا فى نطاق ضيق لا يتجاوز هذه الجزئية أو تلك . أما الخطوط العامة فتبقى هى هى !

أما الأغراض التى تناولتها هذه القصيدة فهى المقدمة الغزلية ، التى تعبر عن آلام الشاعر من جراء الطعنة التى تلقاها من صديقته ، إذ غدرت به وتحولت عنه إلى صديق له ، ثم عادت إليه كرة أخرى وهى تظن أنه سيتلقاها بالعفو ونسيان الماضى ، ولكنه تثور به حمية نفسه فلا يسمح لها بدخول حياته من جديد . وهو يستطرد من ذلك إلى الحديث عن تجاربه فى الحياة ، تلك التجارب التى تعلم منها الكثير ، وبلا فيها الناس على اختلاف صنوفهم ومشاربهم . ثم خرج من ذلك إلى أسفاره (أليست

هذه الأسفار بعض تجارب الحياة ؟) ، غير أنه يقف فيها عند نقطة واحدة ، وهى وصف حصانه وجهده فى قطع الفلوات ، وما يكتسى به وجهه ، فمًا ومنخرا وحاجبا ، من زَبَد يتطاير فى الفضاء بعد ذلك تطاير رقائق القطن من مِنْدفة المنجّد . وفى النهاية يصل بنا الشاعر وحصانه إلى الممدوح .

وعلى رغم أنى حاولت فى الفقرة السابقة أن أجعل الأغراض التى تناولتها القصيدة يسلم بعضها إلى بعض فى شىء ، ولو متكلفا ، من التسلسل المنطقى ، فإنى (بغض البصر عن رفضى لهذا اللون من شعر المديح) لأتساءل : أكان يحسن بالشاعر أن يجمع فى قصيدة واحدة بين الحديث عن خيانة صديقته ورفضه لدخولها حياته من جديد وبين مدحه للعباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ؟ إن الجو النفسى هنا والجو النفسى هناك مختلفان أشد الاختلاف ، اللهم إلا إذا تكلفنا القول بأنه رحل إلى هذا الممدوح لعله يتسلى بالرحلة إليه ويتلقى عطاياه عن آلام حبه المغدور . لكن سرعان ما يثور السؤال الآتى : أبهذه السهولة يستطيع المحب المطعون أن يتسلى بعطايا ممدوحه عن حرقات قلبه ؟ وهبْ ذلك ممكنا ، أمن الممكن أنه بمجرد أن يشرع فى الرحلة ينسى كل شىء عن هذه الآلام فلا تعاوده ولا تهيج به ذكرياتها ؟ فى الحق أن الصلة بين أغراض هذه القصيدة واهية ، إن لم تكن فى بعض الأحيان منعدمة تماما . وفى الحق أيضا أن الشاعر ، وهو ليس بدعا فى ذلك ، إنما كان

يجرى فى ذلك على تقليد شعرى قديم . والشاعر الفحل هو الذى لا تسترقّه التقاليد الأدبية كل هذا الاسترقاق . ان بعض هذه التقاليد واجب الاتباع ، على الأقل فى بعض الأحيان ، لكن على ألا تكون التبعية عمياء .

ولو عمدنا إلى أقسام القصيدة لوجدنا أن أقواها وأجملها هو الأبيات الثمانية الأولى . وفيها يشعر القارىء بألم وسخط مكتوم . إن الشاعر لا يصرخ ولا يبكى ، وانما نحس بحرقته من عباراته التى يقبسها من قلبه الملتاع . ألا تسمع نغمة السخط والتهكم فى هذا البيت :

أيها المنتاب عن عُفُرهْ   لست من لَيْلى ولا سَمَرهْ ؟

ففى الشطرة الأولى يلمح الشاعر إلى خيانة صديقته ، وكأنه يقول لها : أين كنتِ طوال هذه المدة ؟ ومع من كنت تقضين وقتك ؟ وما الذى جاء بك ثانية ؟ ثم تأتى الشطرة الثانية قاطعة حاسمة : لقد انتهى كل ما كان بيننا ، فلم أعد لك ، ولم تعودى لى ، وليس يربطك بى شىء ، أى شىء ! وتمعَّنْ فى إشارته إلى الليل والسمر ، حيث تصفو النفوس وتحلو النجوى وتسرح فى الفضاء أطياف الحب ، تدركْ ماذا يعنى الشاعر بقوله : « لستَ من لَيْلِى ولا سَمَرِه ! »

ويأتى البيت الثانى فنرى الشاعر يبدى لصديقته عدم اكتراثه بها وقلة غيرته عليها . وكيف يغار عليها وقد بلا خيانتها وغدرها ؟ وهو يشبهها بالشجرة المباحة لجميع صنوف الطيور تقع عليها متى وحيث

أحبّت ، وتنقر فيها وتأكل منها كيف تشاء . وهو تشبيه عميق الدلالة والإيحاء ، فكأنه يقول لها إنها لا تمتنع من كل من هب ودب ! أما هو فلا اهتمام له بهذه الشجرة ، ولا يبالى بطرد الطيور عن غصونها وثمارها ، فهى ثمار مُرّة لا تغرى بتذوقها ، وحسبه أنه قد نفض يده منها ، فمن أراد أن يجرب فليتفضل !

ثم يمضى متمدحا بما اكتسبه من تجارب الحياة ، أو كما يسميها هو « الآداب التى أخذها من غِيَر الدهر » ، فهذه التجارب تمنعه أن ينخدع بهذه العودة ، لأنه حريص على سمعته ، لا يحب أن يلوك الناس سيرته ويسخروا منه من خلف ظهره بوصفه الرجل الذى تلقى طعنة الخيانة ثم لم يجد غضاضة فى أن يعاشر مِنْ جديد مَنْ طعنته وأذلت كبرياءه وقضت على كرامته !

خفتُ مأثور الحديث غدا   وغدٌ أدنى لمنتظره

وما أجمل قوله « وغد أدنى لمنتظره » ، وما فيه من إشارة إلى أن ألسنة الناس مشرعة دومًا لِلَوْك سيرة من لا يحافظ على كرامته ، فما أسرع أن يكون مضغة فى الأفواه !

وإذا كانت هذه الصديقة قد حاولت أن تجعله يصفح عن خيانتها فأخذت تتودد إليه لعله أن ينسى الماضى ويبدأ صفحة جديدة ، فإنه قد نفض يده تماما منها . وها هو يلمزها :

فاتَّصِلْ إن كنت متصلا   بِقُوَى من أنت من وطره

فكأنه يقول لها : « إن كنت تريدين حبيبا ، فابحثى لك عن إنسان آخر غيرى يوافق طبعه طبعك ، أما ما كان بيننا فيجدر بك أن تنسيه نسيانا تاما » !

ثم يتحول إلى نفسه فينحى عليها باللائمة وهو يعض بنان الندم ، إذ كيف تخدعه مثل هذه المرأة وتنال منه غرة ؟ لقد راح ، كما نقول الآن ، فى سابع نومة فطعنته الطعنة النجلاء . إن الذنب ذنبه هو ، ولذلك فهو يدعو على نفسه بالخيبة والخسران :

خـــاب مــــن أسْــرى إلى بلـــد   غيـــر معلـــوم مــــدى سَفَـــرِهْ

مصورا هذه العلاقة التى كانت تربطه بصديقته الغادرة على أنها كانت سفرا مجهول الغاية تم فى ظلام الليل . وفضلا عن ذلك فهو لم يأخذ فى أثناء ذلك حذره ، فأسلم عينيه للنوم يرنق فيهما . وتأمل جمال البيت التالى

وسْدتُــــهِ ثِنْــــىَ ساعــــده   سِنَــــةٌ حلّــت إلى شُفُــــرِه

وكيف يصور الشاعر فيه دبيب النعاس فى أعضائه عضوا بعد آخر ، حتى ينتهى إلى أشفار عينيه فيطبق جفونه ويوسد رأسه ذراعه المثنية .

أما فى القسم الثانى فإن الشاعر يخصصه لاستعراض بعض تجاربه فى الحياة استعراضا خاطفا ليس فيه حرارة ولا تعمق ، وكأنه قائمة برؤوس موضوعات سوف يتناولها فيما بعد ، مخصصا لكل تجربة من هذه التجارب بيتين : فهو كثيرا ما سهر ونام أصدقاؤه وبقى هو يحرسهم ، وهو أيضا على كتمان مشاعره ومصانعة مبغضه جد قدير ، وهو كثيرا ما

ذاق حلاوة الحب فنونا وألوانا . ترى أهو يريد أن يقول إنه إذا كان قد سها وترك عينيه للنوم فتلقى الطعنة المصمية ، فإن ذلك لم يكن من طبعه هو الحِذر الذى لاينام عادةً وإن نام غيره ؟ ترى أهو كذلك يريد أن يقول إنه إذا كان قد ابتلع سخطه فليس معنى ذلك أن كسب رضاه بالشيء السهل الهين ؟ أتراه أيضا يريد أن يقول إنه إذا كانت هذه المرأة قد خانته فكم من نساء أعطينه أنفسهن ولم يتأبين عليه ، فكانت علاقته بهن صفوا متصلا وسعادة غامرة ؟ إننا لا نستطيع الجواب على هذه الأسئلة ، بل الحق أن فى هذه الأسئلة شيئا غير قليل من التكلف ، إذ إن الشاعر يستعرض ، كما سلف القول ، تجاربه هذه استعراضا باهتا .

أما فى الحديث عن رحلته فإنه يفصل القول فى وصف حصانه : فهو حصان قوى ، عبل الجسد ، ضامر الخاصرتين ، يفرز من شدقيه زبدا يكسو منه العثنون والمنخرين وعظم الحاجبين ، ثم تطيره بعد ذلك الريح كما تطير المندفة نتف القطن الأبيض فى الهواء . وهو ، كما ترى ، وصف مفصل ، لكنه يفتقر إلى الهدف وإلى الجمال .

أما القسم الرابع ، وهو القسم الذى خصصه لمنافقة ممدوحه على عادة كثير من الشعراء فى تلك العصور ، فإن معانيه تخلو من الأصالة ، اللهم إلاّ بعض اللمحات الجزئية كقوله يصف حَرّ وطيس الحرب :

وإذا مــج القنــا عَلَقًــا وتــراءى المــوتُ فــى صــوره

فالقنا هنا لا تتلطخ بدماء الأعداء ، بل تمجّ الدم من أحشائها

وأفواهها . فأى رماح هذه ! والموت يتجسم أمام العين تجسما ، كالغول تتراءى فى صور مختلفة تخبل العيون والعقول ! كذلك لا تخلو صورة الأشراف الذين أسرهم الممدوح فى حربه مع أعدائه من شىء ، وإن كان طفيفا ، من قوة التأثير :

وتــرى الســادات ماثلـــة ....
فهمـــو شتـــى ظنونهمـــو حَــذَرَ المكنــون مــن فِكَــره

ومبعث هذه القوة أنه لا يحدثنا صراحة عن ذلتهم وضراعتهم ، ولكننا نفهم هذا من تصويره إياهم وقد مثلوا أمام ممدوحه صامتين لا ينبسون ببنت شفة . كما نفهم أنهم قد خرست منهم الألسن من قوله : « فهمو شتى ظنونهمو » ، فإن ظنونهم تشغلهم عن كل كلام ، إذ يستغرقهم تماما التفكير فى ما ينتظرهم على يديه من مصير أسود . وهو من جهته يحتقرهم ويزيد عذابهم بالصمت والتعالى . ومع ذلك فإن قوله عن هذا المدوح فى أثناء ذلك :

لسليــل الشمــس مــن قمــره
وكريـــم الخـــال مـــن يَمَــنٍ وكريـــم العـــمّ مـــن مُضَــرِه

هو السخف بعينه ، إذ ما صلته بموقف الرهبة والفزع الذى يقفه هؤلاء الأشراف الذين أسرهم ؟ قد يصلح هذا الكلام فى وصف فتاة تتزوج ، فيقال إنها سليلة الشمس والقمر !

ومثله فى السخف ، بل أسخف منه ، قوله عن هذا الممدوح قبل ذلك إن « رسول الله من نفره » ، وكأن الممدوح هو الأصل ، والرسول

عليه السلام مجرد واحد من الفروع التابعة له . إن هذه قلة أدب ، ولكن قاتل الله النفاق والمنافقين ومن يصغون إليهم !

أما قوله عن ممدوحه :

فاسْــلُ عــن نَــوْءِ تؤمّلــه ... حَسْبُــك العبــاسُ مــن مَطَــرِهْ
مَلِــكٌ قــلَّ الشبيــهُ لــه ... لم تقــع عيــنٌ علــى خطــره
لا تغطّــى عنــه مكرمــةٌ ... برتَــا وإذ ولا خَمَــرِهْ

فهو كلام لا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به ، لأنه مجرد كلام مرصوف قد صدر عن قلب ميت !

رائية مسلم بن الوليد

أديرى علىَّ الراحَ ساقيةَ الخمر ... ولا تسأليني واسألي الكأس عن أمري
كأنكِ بى قد اظهرتْ مُضْمَرَ الحشا ... لك الكأسُ حتى أطلعتك على سري
وقد كنت أَقِلِى الراح ان يستفزني ... فتنطق كأس عن لساني ولا أدري
ولكنني أعطيتُ مِقْوَدِىَ الصبا ... فقاد بناتِ اللهو مخلوعة العُذْرِ
إذا شئتُ غاداني صَبوح من الهوى ... وان شئتُ ماساني غَبُوق من الخمر
ذهبت ولم أُحددْ بعيني نظرة ... وأيقنت أن العين هاتكة ستري
جعلنا علامات المودة بيننا ... مصايد لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منها الوصل في لِين طرفها ... وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر
وفى كل يوم خشيةٌ من صدودها ... أبيت على ذنب وأغدو على عذر
وملتطم الأمواج يرمى عبابه ... بجرجرة الآذىّ للعبْر فالعِبْر
مطعَمةِ حيتانه ما يُغِبّها ... مآكل زادٍ من غريق ومن كَسْرِ
إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت ... جواريه أو قامت مع الريح لا تجرى
كأن مدبَّ الموج في جنباتها ... مدبُّ الصَّبا بين الوعاث من العُفْر
كشفتُ أهاويلَ الدجى عن مهوله ... بجارية محمولةٍ حامل بكْر
لطمت بخديها الحبابَ فأصبحت ... موقَّعة الدايات مرثومة النحر
إذا أقبلت راعت بقُنّه قَرْهَب ... وإن أدبرت راقت بقادمتي نسر
تجافى بها النوتيّ حتى كأنما ... يسير من الإشفاق في جبل وعر
تخلّج عن وجه الحباب كما انثنت ... مخبّأةٌ من كِسْر ستر إلى ستر
أطلّتْ بمجدافين يعتورانها ... وقوّمها كبحُ اللجام من الدُّبْرِ
فحامت قليلا ثم مرت كأنها ... عقاب تدلت من هواء على وكر
أساف بهاديها ومدّ زمامها ... شديدُ علاج الكف معتمل الظَّهْر
إذا ما عصت أرخى الجرير لرأسها ... فملّكها عصيانَها وهى لا تدرى

كأن الصَّبا تحكى بها حين واجهت نسيم الصبا مَشْىَ العروس الى الخدر
يَمَّمْنا بهـا ليل التمام لأربع فجاءت لستٍّ قد بقين من الشهر
فما بلغت حتى الطِّلاحُ خفيرُها وحتى أتت لون اللّحاء من القِشْرِ
وحتى علاها الموج فى جنباتها بأردية من نسج طحلبه خضر.
رمت بالكرى أهوالُها عن عيونهم فباتت أهاويل السرى بهمو تسرى
تؤمّ محل الراغبين وحيث لا تذاد إذا حلت به أرْحُلُ السَّفْر
ركبنا إليه البحر فى مُؤْخِراته فأوفت بنا من بعد بحرٍ إلى بحر

رأينا فى قصيدة أبى نواس كيف يتناول الشاعر فى قصيدته المدحية عدة أغراض قبل أن يصل إلى ما يريد أن يقوله لمدوحه ، وقلنا إن هذا المدح قد يبدو ، فى بعض القصائد ، وكأن الشاعر قد عرَج عليه بطريق المصادفة ، بل قد يبدو أحيانا باهتا هامدا لا روح فيه ، وهو ما ينطبق على قصيدة مسلم بن الوليد ، التى بين أيدينا ، إذ بعد سبعة وعشرين بيتا (تسعتها الأولى تستغرقها المقدمة الغزلية الجميلة ، وباقيها يصف الشاعر فيه رحلته إلى ممدوحه ، وإن كانت الرحلة هذه المرة قد تمت على ظهر سفينة لا على صهوة جواد) نصل مع الشاعر إلى ممدوحه لنفاجأ بأنه بعد كل هذه الأبيات ، التى يفترض أنها أبيات تمهيدية ، قد اكتفى ببيتين لا غير يصف فيهما هذا الممدوح بالكرم الفياض ، رابطا بينه وبين الرحلة ، إذ تمت هذه الرحلة فى البحر ، وها هو ذا الشاعر يصل فى نهاية المطاف إلى بحر آخر ، هو بحر الكرم .

والملاحظ أن قصيدة مسلم لا يمكن تقسيمها إلا إلى ثلاثة أقسام ،

على عكس قصيدة النواسى التى رأينا أنها تتناول أربعة موضوعات . كما أن النواسى قد خصص لممدوحه ثلاثة عشر بيتا وصفه فيها بأنه يحمى المستضعفين ، ويرد عليهم حقوقهم ، وأنه كريم لا يدانيه أحد فى الكرم ، وأنه أسد فى الشجاعة واقتحام أهوال الموت ... إلخ ، أما مسلم فإنه لم يتحدث عن ممدوحه إلا فى بيتين وصفه فيهما بالكرم الغامر .

وإذا كان أبو نواس فى وصف رحلته إلى ممدوحه قد ألح على إبراز قوة حصانة ، بحيث إنه قد قطع هذه المسافات الشاسعة الوعرة فى الصحراء من غير أن ينال منه هذا المجهود منالا ، فإن مسلما ، على خلاف ذلك ، قد وقف طويلا عند ثوران الأمواج وتلاعبها بالسفينة ، وبراعة النوتى ، الذى لولاه ولولا يقظته ومقدرته الجسدية والعقلية على مواجهة مثل هذه المواقف المهولة لجرفت الأمواج السفينة أو لقلبتها فكانت هى وما تحمل من ركاب وزاد طعاما للحيتان . إن أبا نواس يقول ، فى ختام وصفه لرحلته الصحراوية ، عن حصانه :

كل حاجاتى تناولها وهو لم تُنْقَضْ قُوى أشَره

بينما يقول مسلم

فما بلغت حتى الطَّلاحُ خفيرُها وحتى أتت لون اللحاء من القشر

وما دمنا بصدد المقارنة بين القصيدتين ، فإنى أظن أن قصيدة مسلم أجود من قصيدة أبى نواس ، برغم أنها هى نفسها لا تخلو من عيوب ، كما سنرى .

إن الشاعر هنا ، مثله مثل أبى نواس ، متألم شاك ، إلا أن سبب ألمه وشكواه يختلف عن سببهما عند النواسى : لقد غدرت بالنواسى صديقته غدرة مصمية فهجرته إلى صديق له ، ثم عادت وفى ظنها أنها تستطيع أن تضحك عليه بكلمتين معسولتين تنسيه بهما ما كان من هجرانها وخيانتها وتذكّره بصفو الوداد القديم ، ولكنه يشيح عنها ، ويرفض أن يستمع إليها ، وينصحها ، وهو كاتم سخطه وآلامه ، بأن تبحث لها عن إنسان آخر غيره يلائم طبعه طبعها ويرضى منها بهذه الأفاعيل والألاعيب . أما مسلم فإن مبعث آلامه أنه لا يستطيع ، خوف العيون وكلام الرقباء ، أن يقترب من حبيبته ، فهو لذلك يكتفى منها بالنظرة الخاطفة التى إن شفت غليله لحظة فانها تشقيه أياما وليالى :

ذهبت ولم أُحْدِدْ بعينى نظرة ... وأيقنت أن العين هاتكة سترى
جعلنا علامات المودة بيننا ... مصايد لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين طرفها ... وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر
وفى كل يوم خشيةً من صدودها ... أبيت على ذنب وأغدو على عذر

فانظر كيف يعيش الشاعر من حبيبته على ما يشبه الأوهام ، إذ كل نصيبه من هذا الحب نظرة خاطفة من بعيد يسترقها فى الخفاء ويتحين لها فرصة غفلة الرقباء ، فيختلسها اختلاسا وكأنه يقارف إثما . إن هذا ليس تبادلا للنظرات ، بل هو كما يقول الشاعر الفنان : « مصايد لحظ » وأى مصائد ! « مصائد لحظ هى أخفى من السحر ! » . وهو يعيش على هذه النظرات ، التى إن أشبعت عواطفه وأبهجت قلبه مرة عادت

فقلّبته على فراش السهد ليالى طوالا . وما أحلى تصوير الشاعر لهذا الحرمان الذى يكتفى بالنظرة يؤولها على هذا النحو مرة ، وعلى ذلك النحو مرة أخرى ! وتصوَّرْ حياة الشاعر وسعادته وقد توقفت على هذا التفسير . لذلك فهو ، برغم احتراسه وتحوطه المرهق ، متنبه لكل خلجة فى عيونها وكل لمعة فى نظراتها :

فأعرف منها الوصل فى لين طرفها … وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

وهو مع ذلك كله يتوهم غضبها لسبب ولغير سبب . إن هذا ليس حبا ، بل عذابا أليما :

وفى كل يوم خشيةً من صدودها … أبيت على ذنب وأغدو على عذر

ويا ليته ، وقد توهم أنها غاضبة منه وعليه لهذا السبب أو ذاك من الأسباب الكثيرة التى يتوهمها توهما ، يستطيع أن يقترب منها ويتحدث إليها ويتفاهم معها فيستفسر منها عما ظنه غضبا منها ويسترضيها إن كانت حقا غاضبة ، أو يبتهج إن ظهر له ألا غضب ولا صدود ، بل مجرد أوهام يشقى بها إلى أن يراها من جديد ، فيسترق اليها النظرات كرة أخرى ليسعد بها حينا ويشقى بها أحايين كثيرة .

وقد ظل الشاعر فى هذا الشقاء زمنا طويلاً يحرص الحرص المرهق الأليم على ألا تندّ من لسانه كلمة تفضح حبه ، حتى أصابه اليأس فعكف على الخمر ، التى كان (كما يقول) يقليها خوفا أن تستفزه فيبوح بما يكره أن يعلنه ، وخَلَع العذار ، وأسلم نفسه تماما للذات الصبا

لا يبالى كلام الناس :

أديرى علىَ الراحَ ساقيةَ الخمر ... ولا تسألينى ، واسألى الكأس عن أمرى
كأنكِ بى قد أظهرتْ مضمرَ الحشا ... لك الكأسُ حتى أطلعتْك على سرى
وقد كنت أقلى الراحَ أن يستفزنى ... فتنطق كأس عن لسانى ولا أدرى
ولكننى أعطيت مِقْوَدىَ الصِّبا ... فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غادانى صَبُوحٌ من الهوى ... وإن شئت ماسانى غَبُوقٌ من الخمر

والأبيات ، كما ترى ، تنضح برنة الألم واليأس الذى يدفع بصاحبه إلى اطّراح الحذر وإلقاء نفسه فى خضم اللذائذ يعب منها ، لعله أن ينسى أو يعوض ما كان يصطليه من حرمان . والبيت الأول كفيل وحده بإلقاء الضوء على نفسية الشاعر بعد ما أصابه من تحول ، فهو يهيب بالساقية أن تدير عليه الراح ولا تسأله عن سر تهالكه على الخمر ، فعما قليل ستنحل عقدة لسانه ، التى لم يكن قبلا يحب لها أن تنحل ، فتعرف كل أسراره وتطلع على أسباب يأسه وآلامه . وتمثلّ قوله : « أديرى علىَ الراحَ » ، وكأنه وحده جماعة كاملة من الشاربين تدور عليهم الكأس واحدا بعد آخر . وفيه إيحاء بأنه يريد أن يعب من الخمر عبا ويشرب منها ما تشربه الجماعة . كذلك أنصت جيدا لقوله : « ولا تسألينى ، واسألى الكأس عن أمرى » ، الذى إن كان ظاهره عدم الرغبة فى الكلام ، إذ الخمرة ستطلق عقال لسانه عما قليل ، فإنه يشى برغبته الملحة فى الكلام والفضفضة عما فى قلبه من غصص وحرقات ، وإلا فمن الذى سأله أن يتكلم ؟ إن نهيه للساقية عن السؤال إنما هو فى الحقيقة

إغراء لها به ، لأنه يحتاج إلى من يسأله ويفتح له صدره ويطيل الاستماع الى زفرات فؤاده الكليم . ولذلك تراه يندفع من غير أن يطلب اليه ذلك أحد فيتحدث عن سبب ألمه ويطيل القول فى وصف حبه ، الذى عانى منه الأمرين وعاش فيه على الأوهام والحرمان وخرج منه فى نهاية المطاف من غير أن يظفر منه بطائل . وان قوله : « ذهبت ولم أُحْدد بعينى نظرة » ليشِى بالندم العظيم على أن هذا الحب الأليم قد انتهى إلى لا شىء ، فالنظرة ، حتى النظرة ، لم يتملها من عينى حبيبته كما ينبغى !

ولكن ما أشد أسفنا حين نجد الشاعر بعد هذه الأبيات الساحرة ينتقل فجأة بلا تمهيد أو مسوغ إلى وصف رحلته لممدوحه ! أليس من حقنا اذن أن نتساءل : ما علاقة هذا بذاك ؟ وما سر هذا التقليد السخيف الذى يوقظك من أحلام الحب ليأخذك فى رحلة مرهقة يستجدى به الشاعر بعض المال ؟

ومع ذلك فان هذا الوصف أندى من وصف أبى نواس لرحلته وحصانه ، الذى هو فى معظمه وصف جامد لا روح فيه ، فقد تلبث مسلم أمام أهوال البحر ، وكيف أحدقت بسفينته وأشرفت بها على خطر ماحق لم ينقذها منه إلا مهارة الملاح ورباطة جأشه ووثاقة عضلاته . ولاشك أن مثل هذه الصور مملوءة بحيوية الوصف والمقدرة على استدعاء منظر أمام خيالنا ، بل أمام أبصارنا :

إذا اعتنقت فيه الجَنُوبُ تكفّأت جواريه أو قامت مع الريح لا تجرى

فحامت قليلا ثم مرّت كأنها عُقابٌ تدلى من هواء على وكر
أناف بهاديها ومدَّ زمامها شديدُ علاج الكف معتمل الظهر
إذا ما عصت أرخى الجريرَ لرأسها فملّكها عصيانها وهى لا تدرى
كأن الصَّبا تحكى بها حين واجهت نسيمَ الصَّبا مَشْىَ العروس إلى الخدر

كذلك فان الصورة الآتية صورة جميلة فى حد ذاتها :

إذا أقبلت راعت بقُنَّة قَرْهَبٍ وإن أدبرت راقت بقادمَتَىْ نسر

فالسفينة ، فى وسط الهول المحدق بها ، تبدو لمن يراها من أمام وكأنها ثور منطلق لا يبالى ، أما من الخلف فإنها تبدو للعين وكأنها نسر يشق أجواز الفضاء ، إلا أن الأبيات التى تتلو ذلك ترسم جوا يخالف جو الصورة الماضية :

تجافى بها النوتىُّ حتى كأنما يسير من الاشفاق فى جبل وعر
تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخبّأةٌ من كسر ستر إلى ستر
أطلّت بمجدافين يعتورانها وقوّمها كبحُ اللجام من الدُّبْر

فهذا جو الخوف والحذر والخطر ، وذلك جو الثقة والانطلاق وعدم المبالاة ، فكيف يتسق هذا مع ذاك فى موقف واحد ؟ وإذا كان الشاعر قد شبه سفينته فى بعض المواقف بالعروس التى تنتقل فى حذر واحتياط خشية أن تقع عليها العيون ، أو التى تتهادى إلى بيت الزوجية معجبة بنفسها وسعيدة ، فذلك مفهوم وجميل ، فالتشبيه هنا قائم على أساس نفسى ، والعبرة فيه بكيفية نظرة الشاعر إلى سفينته وإعجابه بها ، وكأنها عروس جميلة تستحى حينا ، وتلفت إليها الأنظار واثقة بنفسها ومعجبة بجمالها حينا آخر . كذلك فإن تلاعبه بالألفاظ فى البيت التالى مقبول ،

وإن لم يكن له جمال الأبيات الأخرى التى سلفت الإشارة إليها لتوها :

كشفتُ أهاويل الدجى عن مهولة ... بجاريةٍ محمولةٍ حاملٍ بكْرِ

أما ذهاب الشاعر إلى حد أن يتخيل للسفينة نحرا وكتفا ، وأنها قد لبست ، مما أحدث الموج فى جانبيها ومقدمتها من خطوط ، حليا وأساور فهذا إغراق فى التخيل وتكلف فيه لا يقوم على أساس مادى ولا نفسى ، إذ من الصعب أن نرى فى السفينه وما ترك الموج على مقدمتها وجوانبها من خطوط ما يذكرنا بالنحر والكتف وما يزينهما من حلى وأساور . كذلك فإن هذه الخطوط إنما تشوه فى الحقيقة جمال السفينة ورونقها ، بله تضيف إليها جمالا كما تفعل الحلى على صدر الحسناء أو فى ذراعها :

لطمتُ بخديها الحباب فأصبحت ... موقَّفة الدايات مرثومة النحر

ولا أدى كيف يلطخ الشاعر بخدَّى سفيته الموجَ فتزينها الحلى والأساور : إن هذا شغل حواة لا خيال شعراء .

ذلك ، وفى القصيدة بعض عبارات يغمض معناها فلا يحقق القارىء مقصود الشاعر منها على وجه الدقة ، كالتشبيه الموجود فى الشطرة الثانية من البيت التالى :

فما بلغت حتى الطلاحُ خفيرُها ... وحتى أتت لونَ اللحاء من القشر

ومثله قوله « فى مُؤْخِراته » من البيت التالى أيضا :

ركبنا إليه البحر فى مؤخراته ... فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

أما بيتا المديح فى آخر القصيدة فأقل ما يقال فيهما إنهما ليسا بشىء .

تائيةُ دعبل فى آل بيت الرسول

مـدارسُ آيــات خَلَـتْ من تلاوة ... ومنــزلُ وحــى مقفـر العَرَصاتِ
لآل رسـول الله بالخيف من مِنًى ... وبالركــن والتعريف والجمـرات
ديـارُ علـىٍّ والحسيـن وجعفـر ... وحمــزةَ والسجـادِ ذى الثَّفِنات
ديـارٌ عفـاها كلُّ جَوْنٍ مبــادرٍ ... ولم تَعْــفُ للأيـــام والسنـوات
قفا نسأل الدار التى خف أهلها : ... متى عهدُها بالصوم والصلوات ؟
وأين الأُلىَ شطّت بهم غربة النوى ... أفانيــنَ فــى الآفــاق مفترقــات
ومـا النـاس إلا حاسد ومكذِّب ... ومضطغنٌ ذو إحنــة وتِــراتِ
إذا ذكـروا قتلى ببـدر وخيبـر ... ويـوم حنيــنٍ أسبلـوا العبــرات
لهـم كـلَّ حيـن نومــةٌ بمضاجعٍ ... لهم فى نواحى الأرض مختلفات
وقـد كـان منهم بالحجـاز وأهلها ... مغاويـرُ يُخْتارون فـى السَّـروات
ملامَـكَ فى أهـل النبـى ، فإنهم ... أحبَّــاىَ ما عاشوا وأهل ثقاتــى
تخيرتهـم رشـدا لأمـرى ، فإنهم ... على كل حـال خيـرة الخيرات
فيا رب ، زدنى من يقينى بصيرة ... وزد حبهـم يـا رب فى حسنانى
بِنَفْسِـىَ أنتـم مـن كهـول وفتيـة ... لفكِّ عُنـاةٍ أو لحمــل ديــات
أحِبُّ قَصِىَّ الرَّحْم من أجل حبكم ... وأهجـر فيكـم أسرتــى وبناتــى
وأكتـم حُبِّيكـم مخافــةَ كاشــح ... عنيـدٍ لأهل الحـق غيـر مُوَاتِ
لقـد حفَّـت الأيـام حولى بشرِّهـا ... وإنــى لأرجـو الأمن بعد وفاتــى
ألم تر أنـى مــن ثلاثيــن حجَّــةً ... أروح وأغـدو دائـم الحسـرات ؟
أرى فيئهـم فــى غيرهـم متقسَّمـا ... وأيْديهـم مــن فيئهــم صَفِـراتِ
فآلُ رسـول الله نُحْـفٌ جسومهـم ... وآل زيــادٍ حُفَّــل القَصَــرات
بنـــات زيـاد فى القصور مصونـةٌ ... وآل رسول اللــه فــى الفلـوات
إذا وُتِـروا مـدوا إلى أهل وترهـم ... أكُفًّــا مــن الأوتــار منقبضات

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ   لَقُطِّع قلبى إثرهم حسرات

هذه القصيدة تغزو القلوب غزوا بما فيها من شجن صادق نبيل . وأى شجن أنبل من الشجن على مصاير آل النبى ، الذين كان المظنون أن يتبوأوا بين المسلمين أعلى مكان ، إلا أن الأقدار ، لأسباب يطول شرحها ، جرت بغير ذلك ، فرأيناهم ، عليهم رضوان الله ، يسامون الاضطهاد والتنكيل والتقتيل على نحو ما صور الشاعر فى القصيدة التى بين أيدينا ؟

ويضاف إلى هذا أن الشاعر قد سلك فى ندب مصاير آل النبى عليه الصلاة والسلام مسلك شعراء الغزل ، إذ يقفون على ديار الحبيبة يبكون رحيلها ويتحسرون على الماضى الجميل الذى ولى ولن يعود وفراغ دنياهم عليهم من بعدها من كل شىء بهيج . وعلى عادة الشعراء الغزلين أيضا نرى دعبلا يمضى فيعدد مواطن أحبائه التى كانوا ينزلونها ويملأونها حياة وحركة . وهذه الطريقة تثير فى نفوسنا أصداء من آلام الشعراء المحبين حين تعذبهم ذكريات الماضى التى حرموا منها :

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخَيْف من منى   وبالركن والتعريف والجمرات

ديارُ علىٍّ والحسين وجعفر   وحمزةَ والسجاد ذى الثفِنات

قفا نسأل الدار التى خف أهلها :   متى عهدها بالصوم والصلوات ؟

وأين الأُلَى شطَّتْ بهم غربة النوى   أفانينَ فى الآفاق مفترقات ؟

على أن هناك ، مع ذلك ، هذا الفرق بين حسرة دعبل وحسرة شعراء

الغزل ، فدعبل لا يبكى على نفسه فقط ، بل يبكى على أحبائه أيضا ، إذ إن هؤلاء الأحباء لم يهجروه ، بل امتدت إليهم يدى الأذى الآثمة فشتتهم فى الآفاق ! وياما أحلى هذه الأسماء المقدسة حين يدور بها اللسان أو ترن فى الآذان : الخيف ، ومنى ، والركن ، والتعريف ، والجمرات ، وعلى ، والحسين ، وجعفر ، وحمزة ، والسجاد ، فإن لكل مكان من هذه الأمكنة وكل علم من هؤلاء الأعلام مكانة فى قلب كل مسلم وضميره ، وما إن يسمعها حتى تتفجر فى نفسه إشعاعات قدسية تتعلق بأنبل ما فيه . انظر مثلا أى أطلال يقف لديها الشاعر . إنها مدارس آيات » ، « ومنزل وحى » . وحين يسألها فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو « متى عهدها بالصوم والصلوات ؟ » ... وهكذا ، وهكذا

وإذا كان الناس يتعاطفون مع المظلوم . فمن أحق بأن نتعاطف معه من آل الرسول عليهم رضوان الله ، وهم الأبطال المغاوير الذين تحولت مصايرهم تحولا عنيفا ، فإذا بهم تتألب عليهم الظروف وتعاكسهم ، فيسقطون سقطة مدوية ؟

لهم كلَّ حين نومةٌ بمضاجع	لهم فى نواحي الأرض مختلفات
وقد كان منهم بالحجاز وأهلها	مغاويرُ يُخْتَارون فى السَّرَوات
....	....
بنفسى أنتم من كهول وفتية	لفكِّ عُنَاةٍ أو لحمل ديات
....	....
أرى فيئهم فى غيرهم مُتَقَسَّما	وأيديَهُمْ من فيئهم صفرات

فـآل رسـول الله نُحْفٌ جسومهم ... وآل زيـــاد حُفَّـــل القَصَــرات

بنات زياد فـي القصـور مصونـة ... وآل رسـول اللـه فـى الفلـوات

إذا وُتِروا مدُّوا إلى أهـل وترهـم ... أكُفًّـا مـن الأوتـار منقبضـات

إن الصورة التي رسمها الشاعر لهؤلاء المظاليم صورة تستثير منا مكامن الشفقة . تأمل كيف يصورهم وقد « شطت بهم غربة النوى أفانين في الآفاق مفترقات » ، وكيف أن :

لهـم كـلَّ حيـن نومة بمضاجـع ... لهم فى نواحى الأرض مختلفات

وكيف أن حقهم قد أنْتُـزِع مـن أيديهـم انتزاعـا ، وقسمه الظالمون فيما بينهم ، فترى آل الرسول « نحفا جسومهم » ، وأعناق أعدائهم من كثرة ما يملأون كروشهم سمينة حافلة ، بل كيف لا يجد آل الرسول الأمن والحماية ، فهو يلوذون ، ومعهم بناتهم ونساؤهم ، بالفلوات بعيدا عن أيدى الباطشين ، بينما « بنات زياد بالقصور مصونة » . وتأمل هذا البيت الذى يصور آل الرسول عليه الصلاة والسلام وهم يحاولون أن يدفعوا عن أنفسهم يد الفتك بأكفّ عزلاء ، فكأنك تشاهد صقرا جارحا قد انقض من الفضاء على عش به فراخ طير صغيرة لا تستطيع أن تدفع العدوان عن نفسها :

إذا وُتِـروا مـدوا إلى أهل وترهم ... أكُفًّـا مـن الأوتـار منقبضـات

والشاعر يرى موقف آل الرسول صعبا حرجا ، فقد تألب عليهم أصحاب التّرات ، الذين لم ينسوا ما أوقعه بهم أولئك فى ملاحم الاسلام المجيدة فى بدر وحنين وغيرهما ، فهم منهم « بين حاسد ، ومكذب ،

ومضطغن ذى إحنة وترات » ، إذ إن ذكرى الهزائم المذلة وما كبدهم آل الرسول من مقاتل لا تزال تلح عليهم وتؤرقهم وتلذع قلوبهم تلذيعا وتُجرى من عيونهم الدموع لاهبة :

وما الناس إلا حاسد ومكذّب ... ومضطغن ذو إحنة وترات

إذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ... ويوم حنين أسبلوا العبرات

إن ما أنزله آل الرسول بأعدائهم فى بدر وحنين وغيرهما من الغزوات إنما كان جهادا منهم فى سبيل الله يردون به عدوان الجاهلية المشركة ، ويمكنون لدين الله فى الأرض ، ولم يكن حبا منهم للايذاء وترويع الآمنين . إلا أن منطق الثأر منطق أعمى .

وإذا كان هذا هو حال آل النبى فان الشاعر لم يكن أحسن حالا . إنه يحب آل الرسول حبا جما ، « فإنهم أحباه ما عاشوا وأهل ثقاته » ، وإنه « يحب قصىَّ الرّحْم من أجل حبهم » ، بل يحبهم أكثر من حبه لأهله وبناته . وهذا الحب قد جر عليه اللوم والأذى ، ومن ثم نراه يتألم ويترجى من يلومه فى هذا الحب أن يعفيه من هذا اللوم ، أو على الأقل يخفف منه :

ملامك فى أهل النبى ، فإنهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى

كما نراه يكتم هذا الحب خشية مزيد من الأذى :

وأكتم حُبّيكُمْ مخافة كاشح ... عنيد لأهل الحق غير مُواتِ

وهو يصور حسرات نفسه المتصلة المتطاولة فى البيت التالى :

ألم تر أنى مـن ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات ؟

ولكنه على رغم ما يلاقيه من خوف وترويع يضع أمله فى الحياة الأخرى ، يوم يجازيه الله على هذا الترويع أمنا :

لقد حفّت الأيام حولى بِشرِّها ... وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى

ألا تمتلك قلوبَنا من أزمتها هذه الثقة فى رحمة الله وفيما يسبغه يوم القيامة من أمن على عباده الذين قضوا حياتهم الدنيا بسبب إيمانهم خائفين مفزعين ؟ إن هذا الرجاء هو الذى يقدّره عل الاحتمال وعلى مواصلة الحياة ، ولولاه لقضى حسرة ويأسا :

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد ... لَقُطِّع قلبى إثرهم حسرات

إن حبا مثل هذا لابد أن يأسر منا النفوس . واستمع إلى الشاعر كيف يؤكد أن حبه لهم قائم على بصيرة :

تخيرتهم رشدا لأمرى ، فإنهم ... على كل حال خِيرة الخِيرات

وهو يدعو الله أن يضع هذ الحب فى ميزان حسناته يوم الحساب ، حتى يفوز بسببه بالنعيم العظيم :

فيا رب ، زدنى من يقينى بصيرة ... وزد حبهم يا رب فى حسناتى

إن هذه القصيدة لتفضُل كل قصائد المديح القائم على النفاق والمنفعة مجتمعة ، فليس الشعر المقبوس من نار الفؤاد كالشعر الذى يتساقط من طرف اللسان باردا سمجا . ويزيد هذه القصيدة حلاوة فوق حلاوتها أن الشاعر لم يتناول فيها شيئا آخر غير هذا الحب السامى وما جره عليه من الويلات . وهل ثمة ما يسامى هذا الغرض حتى يُقْرَن به فى شعر واحد ؟ إن هذه القصيدة دفقات من التألم والتحسر على الماضى وعلى

الحاضر كليهما . شىء واحد فقط ، كما سبق القول ، يخفف هذه اللوعة ، هو الأمل فى رحمة الله فى الحياة الآخرة .

أما المقدمة الطللية التى كثيرا ما تأتى مُجْتَلَبة فى الشعر العربى القديم فإنها فى هذه القصيدة فى موضعها تماما ، إذ الأطلال هنا هى أطلال الأحبة الذين تدور عليهم القصيدة كلها .

بيد أن هناك شيئا صغيرا فى هذه القصيدة المؤثرة كنت أحب لو أن الشاعر قد استبدل به غيره ، هو لقب « ذى الثَّفِنات » . صحيح أن من معانى « الثفنة » الركبة ، ولكنها ترتبط فى الذهن أكثر ما ترتبط بركبة البعير ، التى يبرك عليها فتغلظ وتتحرشف وتصبح أسمج ما فيه .

ذلك . ويصعب على أن أضع القلم دون أن أشير إلى قوله عن الحاقدين على آل رسول الله عليه الصلاة والسلام :

إذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ... ويوم حنين أسبلوا العبرات

فإسبال العبرات لا يتناسب أبدا مع مشاعر الحقد والانتقام ، إد إن البكاء ، على كل حال ، دليل على رقة القلب ، والحقدُ والرغبة فى الانتقام والتنكيل أعنف وأعصف من أن يسمحا للعين بأن تدمع . وفضلا عن ذلك فهذا التعبير يضعف الصورة ، إذ يدل على أقل كثيرا مما نتوقع فى هذه الحالة .

أبو تمام فى فتح عمورية

السيف أصدق أنباء من الكتُبِ ... فى حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعبِ
بِيضُ الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جَلاء الشك والريب
والعلم فى شُهُبِ الأرباح لامعةً ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية ؟ بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب ؟
تخرُّصًا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غَرَبِ
عجائبا زعموا الأيام مُجْفِلةً ... عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكبُ الغربى ذو الذنب
وصيروا الأبْرُجَ العليا مرتَّبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... ما دار فى فلك منها وفى قُطُبِ
لو بَيَّنَتْ قط أمرا قبل موقعه ... لم تُخْفَ ما حل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القُشُبِ
يا يوم وقعة عمورية ، انصرفت ... عنك المنى حُفَّلاً معسولة الحَلَبِ
أبقيت جَدّ بنى الاسلام فى صُعُدِ ... والمشركين ودارَ الشرك فى صَبَبِ
أمٌّ لهم لو رجوا أن تُفْتَدَى جعلوا ... فداءها كل أم بَرَّةٍ وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتُها ... كسرى وصَدَّت صدودا عن أبى كَرَبِ
من عهد إسكندرٍ أو قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تَشِبِ
بِكْرٌ ، فما افترعتها كفُّ حادثة ... ولا ترقَّت إليها هِمَّة النُّوَبِ
حتى إذا مخض الله السنين لها ... مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكُرْبَةُ السوداء سادرة ... منها وكان اسمها فَرَّاجة الكرب
جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحَبِ
لما رأت أختَها بالأمس قد خَربَت ... كان الخراب لها أعدى من الجَرَبِ

كم بين حيطانها من فارسٍ بطلٍ   قانى الذوائب من آنى دمٍ سَرِب
بسنة السيف والخطيّ من دمه   لا سنة الدين والاسلام مختضب
لقد تركتَ ، أميرَ المؤمنين ، بها   للنار يوما ذليلَ الصخر والخشب
غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضُحًى   يَشُلُّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت   عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماءُ عاكفةٌ   وظلمة من دخان فى ضحًى شَحِب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلتْ   والشمس واجبة من ذا ولم تَجِب
تَصَرَّح الدهرُ تصريح الغمام لها   عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُب
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على   بانٍ بأهل ولم تغرب على عَزَب
ما رَبعُ ميّةَ معمورا يطيف به   غيلان أبهى رُبًا من ربعها الخرب
ولا الخدود وقد أُدْمِينَ من خجل   أشهى إلى ناظرى من خدها التَّرِب
سماجة غَنِيتْ منا العيون بها   عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه   جاءت بشاشته عن سوء منقلب
لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت   له المنيةُ بين السُّمر والقُضُب
تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتغب فى الله مرتقب
ومُطْعَم النصر لم تَكْهَم أسنته   يوما ولا حُجِبت عن روح محتجب
لم يغز قوما ولم يَنْهدْ إلى بلد   إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يَقُدْ جحفلا يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها فى جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدّمها   ولو رمى بك غيرُ الله لم تُصب
من بعد ما أشّبوها واثقين بها   والله مفتاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم : لا مرتع صَدَدٌ   للسارحين وليس الوِرْد من كثب
أمانيًا سلبتهم نجحَ هاجسها   ظُبَى السيوف وأطرافُ القنا السُّلُب
إن الحِمامَيْن من بيض ومن سُمْر   دَلْوا الحياتين من ماء ومن عُشُب
لبيتَ صوتا زِبَطْريًّا هرقتَ له   كأسَ الكرى ورضاب الخُرَّد العُرُب

عداك حَرُّ الثغور المستضامة عن … بَرْد الثغور وعن سلسالها الحَصِبِ
أجبته معلنا بالسيف منصلتا … ولو أجبت بغير السيف لم تُجِبِ
حتى تركت سواد الشرك منقعرا … ولم تعرّج على الأوتاد والطُّنُبِ
لما رأى الحربَ رأيَ العين توفلسٌ … والحرب مشتقة المعنى من الحَرَبَ
غدا يصرّف بالأموال جريتها … فعَزَّه البحر ذو التيار والحَدَبِ
هيهات زُعْزِعت الأرضُ الوقورُ به … عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهبَ المربى لكثرته … على الحصى وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسودَ الغابِ همّتها … يوم الكريهة فى المسلوب لا السَّلَبِ
ولّى وقد ألجم الخَطّيُّ منطقه … بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
أحذى قرابينَه صَرْفَ الرَّدَى ومضى … يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكَّلا بيَفَاع الأرض يشرفه … من خفة الخوف لا من خفة الطرب
إن يَعْدُ من حرّها عدو الظليم فقد … أوسَعْتَ جاحمها من كثرة الحطب
تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت … جلودهم قبل نضج التين والعنب
يا رُبّ حوباء لما اجتث دابرهم … طابت ، ولو ضُمِّخَتْ بالمسك لم تطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به … حَيَّ الرضا من رداهم ميتَ الغضب
والحرب قائمة فى مأزق لحج … تجثو الكماةُ به صغرا على الركب
كم نيلَ تحت سناها من سنا قمر … وتحت عارضها من عارضٍ شَنِبِ
كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها … إلى المخدَّرة العذراء من سبب
كم أحرزت قضبُ الهنديّ مصلتةً … تهتز من قضب تهتز فى كُثُبِ
بيض إذا انتُضِيَتْ من حجبها رجعت … أحق بالبيض أبدانا من الحجب
خليفةَ الله ! جازى الله سعيك عن … جرثومة الدين والاسلام والحسب
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها … تُنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ … موصولة أو ذِمامٍ غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نُصِرْتَ بها … وبين أيام « بدر » أقرب النسب

أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهمو — صفـر الوجوه ، وجلت أوجه العرب

هذه القصيدة واحدة من الغُرَر اللامعة فى جبين الشعر قديمه وحديثه ، وسوف تظل تترنم بها أجيال العرب والمسلمين حتى فى أحلك لحظات تاريخهم ، لأنها تذكرهم بالمجد القديم وتستحثهم أن ينهضوا ويسموا إلى الأفق السامق الذى حلق فيه المسلمون بقيادة معتصمهم تحليق النسور وانقضوا منه على أعدائهم فافترسوهم وأبادوهم ومزقوهم شر ممزق ، وجعلوهم عبرة لمن تسول له نفسه الخبيثة بالعدوان على بلاد المسلمين . إلا أن روعة القصيدة الخالدة ليست ترجع فحسب إلى موضوعها وما تثيره فى نفوس العرب والمسلمين جميعا من معانى المجد ومشاعر العزة وتستحثهم إليه من منازل الكرامة ، وإنما ترجع أيضا إلى ما حوته من كنوز الفن الراقى . وإليك البيان :

أول ما يلفت انتباهنا فى هذه الرائعة الخالدة ما يسربلها من فخامة الوزن والقافية واللفظ والصورة ... إلخ ، فخامة تناسب فخامة هذا الفتح المبين ، الذى سحق فيه المسلمون علوج الشرك ، لعنهم الله فى كل زمان ومكان ، فغادروا تسعين ألفا من هؤلاء الكلاب مطروحة جثثهم فى وسط النيران التى أكلت بيوتهم ، بيوت الرجس والعدوان ، لا تجد من يسأل عنها أو يبالى بها . فالبحر الذى صُبّت فيه القصيدة من الأبحر الطويلة التى تهيىء للشاعر الفرصة لأن يهتف ويجلجل صوته كما يحلو له الجلجلة والهتاف ، ثم تأتى القافية البائية التى لم يتكرر فيها لفظ واحد مرتين

لتقرع الآذان قرعا فتغمر الجسم والنفس فورة الحماسة ويستيقظ أنبل وأكرم وأمجد ما فى الإنسان . بل إنى لأتخيل الشاعر وهو ينظم رائعته هذه وقد سخنت رأسه وأصبح لخياله ألف عين وعين يبصر بها ويقتنص هذه الصور العجيبة التى تخيل لك وأنت تقرأ القصيدة أنك فى معرض للفن العظيم تبهر عينك اللوحات الفاتنة الساحرة ، فلا تستطيع ، إلا بالمشقة ، التركيز على إحداها ، لأن كلاًّ منها تدعوك فى ذات الوقت لتتملاها ، وأنت متحير بين هذه وذى وتلك . ومن ذا الذى يقرأ الأبيات الآتية وهو متمالك مشاعره ؟ :

يا يوم وقعة عمورية ، انصرفت ... عنك المنى حُفَّلاً معسولة الحَلَب

* * *

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتُها ... كسرى ، وصدَّت صدودا عن أبى كرب
من عهد إسكندرٍ أو قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بِكْرٌ ، فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقَّت إليها همة النوب
حتى إذا مخض اللهُ السنين لها ... مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحقب

* * *

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب

* * *

ما ربْعُ مَيَّةَ معمورا يطيف به ... غَيْلان أبهى رُبًا من ربعها الخرب
ولا الخدود وقد أُدْمِين من خجل ... أشهى إلى ناظرى من خدها التَّرِبِ
سماجة غنيت منا العيون بها ... عن كل حسن بدا أو منظرٍ عجبا

* * *

لم يعلم الكفر كم من أعصُرٍ كمنت ... له المنيةُ بين السمر والقضب

تدبيـــر معتصـــم باللـــه منتقـــم للـــه مرتغـــب فـــى اللـــه مرتقـــب

وانى ما قرأت هذه البيت الأخير مرة إلا وتخيلت أبا تمام يجأر بأعلى صوته من فرط حماسته وإعجابه بهذا النصر العظيم ، الذى وفق الله إليه أمير المؤمنين المعتصم بالله ، وهو يملأ فمه بهذه التقسيمات الموسيقية المدوية : « معتصم بالله ، منتقم لله ، مرتغب فى الله » (وقد تكون هكذا : بالله منتقم ، لله مرتغب ، فى الله مرتقب » . وكلا التقسيمين أحلى من الآخر) ، وقد أخذت الأرضَ والسماواتِ جلجلةُ اسم الذات الإلهية ، التى منها استمداد النصر وإليها الملاذ . إن القصيدة ، كما يقال ، هى فى مدح المعتصم ، ولكن انظر كيف يكون المديح . إنه ليس مديح النفاق والكذب ، بل مديح يعرف حدوده ، فنعجب نحن به من ثمة إعجابا لا يعرف الحدود ، فهو يقول :

لم يَغـزُ قومـا ولم ينْهَـدْ إلى بلـــد إلا تقدمـه جيش مـــن الـــرعب

لو لم يقد جحفلا يوم الوغـى لغدا من نفسه وحدها فى جحفل لجب

ولكنه عقيب هذا يضيف :

رمـى بـك الله برجيها فهدّمهـــــا ولو رمى بـك غيـرُ اللـه لم تُصِبِ

مـن بعدمـا أشّبوهـا واثقيـن بهـا والله مفتـاح بـاب المعقل الأشِبِ

ومن هنا فعندما يقول :

إذا كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ موصولـة أو ذمـام غيـر منقضـب

فبيـن أيامـك اللاتى نُصِرْتَ بهـا وبين أيام « بـدر » أقرب النسب

فإننا لا نملك إلا الإعجاب بهذه البصيرة التمامية التى التقطت خيط هذا

النسب الكريم العظيم . أتدرى ماذا يقول الله فى قرآنه المجيد عن الانتصار الساحق الذى أحرزه الرسول والمسلمون فى بدر الكبرى ؟ إنه سبحانه يقول : « فَلَمْ تقتلوهم ، ولكن والله قتلهم . وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ، ولكن الله رَمَى » ، فقارن بين قول الحق هنا سبحانه وبين بيتى أبى تمام السابقين على آخر بيتين استشهدنا بهما تجد المعنى واحداً ، لأن أبا تمام قد استلهم الآية الكريمة . ويزيد هذا المديح علوا فى نظرنا أن أبا تمام إنما يمدح المعتصم لما أنجزه هذا البطل العظيم من نصر مبين فى موقعة عمورية ، التى :

أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهمو ... صُفْرَ الوجوه وجلّت أوجه العرب !

وفضلا عن هذه الفخامة التى تسربل القصيدة ثمّة الوحدة الفكرية والنفسية التى تشد أبياتها كلها بآصرة وثيقة ، فتبدو للعين بناء متينا صلبا راسخا . فالأبيات لا تعالج موضوعا آخر غير هذا الفتح المجيد ، الذى تم على يد البطل الصنديد الخليفة المعتصم بالله ، الذى استحق بحق أن يدعو له شاعرنا المفلق ضارعا بقوله :

خليفة الله ، جازى الله سعيك عن ... جرثومة الديـن والإسلام والحسب

وهذه الأبيات تبدأ بالتهكم الصاعق على المنجمين وتخرصاتهم ، إذ حاولوا أن يَثْنُوا المعتصم بالله عن إنفاذ الجيش للانتقام من عدوان الروم على أطراف الدولة ، تحت شبهة أن النجوم تخبرهم بأن الحملة ستفشل إن خرجت فى ذلك الوقت . والشاعر فى أثناء ذلك يسخر من النجوم

والأبراج وتقسيمات المنجمين لها إلى أبرج عليا وغير عليا ، وأبرج منقلبة وغير منقلبة ، حتى إذا ما بلغ النغمة الأخيرة فى تهكمه فى البيت التالى :

لو بَيَّنَتْ قطُّ أمرا قبل موقعه   لم تُخْفِ ماحلَّ بالأوثان والصُّلُبِ

اندفع يهتف ممجدا هذا الفتح المبين ، الذى يسميه عن جدارة « فتح الفتوح » ، والذى اهتز له الكون كله طربا فكأنه فى يوم عيد . وكيف لا وقد عزّ به الإسلام والمسلمون وذل به الشرك والمشركون ، وذلك حين سقطت عمورية ، التى يصفها الشاعر قائلا إنها « شابت نواصى الليالى وهى لم تشب » ، عمورية التى تأبت على من حاول قبل المعتصم فتحها من الناتحين ، كما تتأبى الحسناء المدلّة بجمالها وفتنتها على الخطاب والعاشقين ، احتقارا لهم وغرورا بتلك الفتنة الخالدة ، عمورية الغادة البكر التى اعتلت على كر الأزمان عرش المحد ، فلم تستطع همة النوائب أن ترتقى إليها فى عليائها وبهائها ، فجاء المعتصم ففعل ما لم يفعله الأولون ، إذ أذل كبرياءها ، وأسلس عصيانها ؟ وهنا ينطلق الشاعر ، فيرسم فى لوحات أخاذة نابضة الألوان والخطوط ألسنة اللهب وقد أحالت ليلها ضياء ، فيخال الرائى أن الشمس لا تزال بازغة فى الأفق ويشاهد على ضوئها جثث تسعين ألفا من جنود الأعداء وقادتهم ، وقد تحولت المدينة من حولهم إل جدران وأنقاض . ويعرج أبو تمام على اغترار رؤسائهم بحصانة مدينتهم وظنهم أنهم لن يُغْلَبوا من ضعف ، فلم ينفعهم ما

أشَبوا من حصون . وكيف تنفعهم وقد كانوا يحاربون الله ، « والله مفتاح باب المعقل الأشب » ؟ كما يسخر أبو تمام هنا من إنفاق إمبراطور الروم الأموال الطائلة ، ظنا منه أنه مستطيع أن يدفع هذه السيول العارمة بأمواله ، ويصوره وقد فر يلوذ بالمرتفعات منخوب القلب مخلفا وراءه جنوده بعدما قدمهم طعاما للنيران والسيوف ، تلك السيوف التى أحرزت للمنتصرين حِسَانَ الروم .

ويختم الشاعر هذه البائية الخالدة بهذه الأبيات التى لا نجد أحسن منها حسن ختام لمثل هذه الملحمة التى يعز لها فى الشعر نظير :

خليفةَ الله ، جازى الله سعيك عن	جرثومة الدين والإسلام والحسب
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى ، فلم ترها	تُنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نُصِرْتَ بها	وبين أيام « بدر » أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهمو	صفر الوجوه ، وجلّت أوجه العرب

وتحس الأذن والعين والنفس عند الفراغ من البيت الأخير أنها وصلت إلى آخر نغمة فى هذا اللحن الشامخ ، ففيه تلخيص الموقف كله فى هذه الصورة الواخزة الحية . فالقصيدة ، كما ترى ، وحدة واحدة فى موضوعها وجوها النفسى بما فيها من تهكم واخز وشماتة محرقة وفرحة طاغية ، حتى إن الشاعر ليتلاعب ، فى وسط هذه البهجة الغامرة ، باللغة تلاعبا ، وهو تلاعب يعكس ما كان يحسه الشاعر والأمة الإسلامية آنئذ من مشاعر الابتهاج والعزة والفخار ، وحتى إن خياله

لَيَسُحَ عليه بالصور المدهشة التى تدل على فحولة وأصالة واقتدار . فإذا كان التلاعب بالمحسنات البديعية مذموما فى بعض المواقف لما فيه من تكلف ، فإن بديع أبى تمام هنا هو البديع بعينه . اقرأ إن شئت :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

والعلم فى شهب الأرماح لامعةً ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

إن الطباقات والتوريات والجناسات هنا ليست حيلا بهلوانية ، بل زخارف موفقة في هذا العيد السعيد . وهى زخارف أتى بها الشاعر للزينة ولمعنى آخر غير الزينة ، هو التهكم على جهل هؤلاء المنجمين وادعائهم وكذبهم ، فكأنه يقول بهم : أتزعمون أن فى تنجيمكم الحد بين الجد واللعب ؟ كلا ثم كلا ، بل الحد بين الجد واللعب هو فى حد سيوف الايمان ! أتزعمون أن فى سواد كتابات صحفكم جلاء الشك والريب ؟ كلا ثم كلا ، إذ كيف يكون فى ظلمة السواد جلاء من الشك والريبة ؟ إنما جلاء الشك والريبة فى نور بياض السيوف حين تُنْتَضَى ويُهْوَى بها على رؤوس الكفر والضلال ! أتزعمون أن عند شهبكم العلم بما يخبئه المستقبل ؟ كلا ثم كلا . إنما علم ذلك يتجلى للعين على لمع الحسام إذا حمى وطيس القتال ، فهو الذى يقرر النصر والهزيمة ، إذ لا نصر لعاجز متخاذل ينصت إلى أكاذيب الدجالين ، وإنما النصر من عند الله يهبه لكل مؤمن شجاع يأخذ عدته وينطلق فى سبيل الله ، مقتحما الأخطار عاقدا العزم على النصر أو الاستشهاد ... وهكذا ، وهكذا .

وانظر أيضا كيف يتلاعب الشاعر بالصور تلاعبا يدل على ثرائه المدهش منها ومقدرته على التفنن فيها كيف يشاء : فهو مثلا يجعل عمورية مرة أُمًّا للروم ، إشارة إلى أنها عنوان مجدهم من قديم الزمان ، وأنهم كانوا على استعداد لفدائها بالآباء والأمهات :

أمٌّ لهم لو رجوا أن تُفْتَدَى جعلوا فداءها كلَّ أم بَـرَّةٍ وأب

ولكنهم فقدوا الرجاء فلم يفعلوا . إذ كانت سيول المسلمين أطغى من أن تُصَدّ . ومرة يجعلها امرأة برزة تُدِلّ بجمالها الفتان وتشمخ بأنفها على من تسول له الأمانى أن يتقدم إليها يعرض عليها قلبه وحبه ، لم تُعْفِ من ذلك كسرى ولا أبا كرب وكيف لا تفعل وهى المرأة الخالدة التى شاب الزمن ، وشبابها باق على نضارته وغضارته وفتنته ؟ ومرة يجعلها بكْرا لم تستطع صروف الدهر أن تفض بكارتها ، بله أن تترقى إليها فى عليائها وشموخها . ومرة يجعل السنين وعاء من اللبن ، وقد عكفت يد الله عليه تمخضه فى حرص وإعزاز حتى استخلصت منه عمورية قطعة من الزبد المصفى :

حتى إذ مَخَضَ الله السنين لها مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحقب

وتأمل هذه الصورة أيضا :

جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة إذ غودرت وَحْشَةَ الساحات والرحب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

فهل سمعت من قبل بالخراب يعدى كما يعدى الجرب ؟

أو هذه الصورة :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليلَ الصخر والخشب
غادرت فيها بهيمَ الليل وهو ضُحًا يَشُلُّه وسطَها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفة وظلمةٌ من دخان فى ضحًا شَحِبِ

فذلة الهزيمة قد لحقت حتى بجدران البيوت فيها من صخر وخشب ، والظلام البهيم قد استحال بفعل ألسنة النيران المتأججة إلى صبح بل إلى ضحا ، والدجى لها جلابيب ، وهذه الجلابيب قد سئمت لونها الأسود . والناظر إلى كل هذا لا يدرى أهو فى حلم أم فى علم ، ولا يستطيع القطع بأن ما يراه ليل أو نهار ، فاللهب من تأججه يحيل الدنيا إلى نهار ساطع ، ثم يهجم الدخان المنعقد الكثيف فإذا به يخيَّل إليه أن الشمس قد غربت مع أنه لا شمس هناك ولا نهار .

وهذا الخيال الذى يجعل من الليل نهارا هو هو الخيال الذى يرى فى قبح ما لحق بالمدينة من خراب وحرائق حسنا لا يضارعه حسن ، حسنا يستلب منه اللب كما كان ربع ميّة ، وهى فيه تعمره بالحياة والفتنة والجمال ، يسحر فؤاد ذى الرمة ، الشاعر الذى خلدها فى شعره إلى الأبد :

ما رَبْعُ مية معمورا يطيف به غَيْلانُ أبهى رُبًا من ربعها الخرب
ولا الخدود وقد أُدْمِين من خجل أشهى إلى ناظرى من خدها الترب
سماجةٌ غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب !

وتأمل كيف يجعل أبو تمام الموتَ يترصد للكفر فى غابة من الرماح

أدهارا متطاولة ، ثم ينقض فجأة عليه . فيجرعه الهلاك تجريعا :

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له المنية بين السمر والقضب

وتأمل كيف يجعل الكرى كأسا يحتسى منها الإنسان مشروبا حلوا لذيذا ، فإذا بالمعتصم ، وقد بلغه خبر اعتداء الروم الأنجاس على حدود دولة الاسلام ، يمسك بالكأس ويريق كل ما فيها على الأرض ثم ينهض للانتقام من هؤلاء الأرجاس قاطعا بذلك خط الرجعة على نفسه . وقد كان الشاعر مستطيعا أن يقول مثلا : « آليت على نفسك ألا تخلد للكرى » ، ولكن من يحلف ألا ينام قد يغلبه النوم على نفسه ، فالنوم سلطان ، أما أن يهرق كأس الكرى فمعنى ذلك أنه لم يعد أمامه إلا السهر المتواصل حتى إتمام النصر

وانظر كذلك إلى قوله :

لبيتَ صوتا زِبَطْرِيًّا هرقت له ... كأسَ الكرى ورضاب الخُرَّد العُرُبِ
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تُجبِ

حيث يجعل الإجابة بالعمل لا بالكلام ، إذا ما أسهل هذا وأقل جدواه ! والمهم التنفيذ ، وليس الكلام بمطعم ولا مُسْمِن . والشاعر يصارح الخليفة بأنه لو كان جوابه بشىء آخر غير السيف يحزّ به رقاب الأعداء ويجندل به أبطاله حتى لا يفكر من ينجو بجلده منهم فى أن يعتدى على حرمة الإسلام ثانية ، ما كان لجوابه أية قيمة .

كذلك انظر كيف جعل الشاعر دولة الروم كالخيمة عمودها عمورية ، وأوتادها المدن الصغرى ، فجاء المعتصم وسدد ضربته المصمية

لمركز الدولة فمحقها من الوجود محقا ، فكأنه طوح بعمود الخيمة ، غير مضيع وقته وجهده فى اقتلاع الأوتاد ، التى ما كان اقتلاعها مفيدا شيئا يُذْكَر لو بقى عمود الخيمة فى موضعه راسخا :

حتى تركت عمود الشرك منقعرا ولم تُعَرِّج على الأوتاد والطُّنُبِ

وتأمل أيضا هذه الصورة التى رسم فيها أبو تمام ما أصاب إمبراطور الروم من رعب وفزع :

ولّى وقد ألجم الخَطِّىُّ منطقَه بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب

جاعلا من لسان الإمبراطور حصانا قد امتطاه سيف الخليفة وجعل له لجاما مصنوعا من الصمت والفزع . أما قلب الإمبراطور ، أو كما قال الشاعر « أحشاؤه » ، فإنها تحت هذا الصمت تصخب صخبا مدويا من الرعب كذلك والفزع ، فلسانه من الرعب قد خرس ، وقلبه أيضا من الرعب تدوى دقاته دويا شديدا :

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تُنَال إلا على جسر من التعب

التى يصور فيها الراحة الكبرى ، راحة العز والشرف بعد الانتقام من أعداء الأمة والملة ، وقد فصل بينه وبينها نهر طامٍ لا يخاض له عباب ، وإنما يمتد فوقه جسر بُنِىَ من الجهد والاضطلاع بعظائم الأمور ، فما كان من المعتصم إلا أن عبر النهر فوق هذا الجسر لينال الراحة الكبرى . وهل تنال الأمجاد إلا بالجد والعناء ؟ ولكن انظر كيف عبر أبو تمام عن هذا المعنى ، فأبدع وأتى بالمعجب العبقرى .

وتمعن كيف يجعل بين صروف الدهر وأيامه نسبا وصهرا ورحما

موصولة ، ثم كيف يستقرى نسب هذا اليوم العظيم ، يوم فُتِحَت عمورية ، حتى يرتد به إلى يوم بدر ، الذى انتصر فيه بنو الاسلام لأول مرة على علوج الكفر والضلال :

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذِمامٍ غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نُصِرْتَ بها ... وبين أيام « بدر » أقرب النسب

ثم كيف يتلاعب بالكلمات تلاعبا ينم عن وقادة ذهن ولطف خيال وفرحة غامرة وشماتة قاهرة :

أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهمو ... صفر الوجوه ، وجلَّت أوجه العرب

وهو يقصد بالعرب هنا « المسلمين » ، فالإسلام دين عربى (بمعنى أنه نزل على رسول عربى بُعث أول ما بُعث إلى العرب) ، والدولة عربية (فلغتها هى لغة الضاد ، وحكامها عرب مسلمون) . وعلى أية حال فهذه هى المرة الوحيدة التى يذكر فيها العروبة والعرب ، وإلا فقد قال قبل ذلك :

خليفةَ الله ، جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له المنيةُ بين السمر والقُضُب

* * *

أبقيت جَدَّ بنى الاسلام فى صُعُد ... والمشركين ودار الشرك فى صَبَب

فالصراع كان صراعا بين الإسلام والشرك ، ولم يكن صراعا بين العرب وغيرهم ، فجيش الإسلام لم يكن جيشا عربيا بالمعنى العرقى ، بل كان يضم أبطالا من كل صقع ومن كل جنس فى ديار الإسلام .

ابن الرومى فى رثاء ابنه محمد

بكاؤكما يَشْفِى وان كان لا يُجْدِى ... فَجُودا فقد أودى نظيرُكما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورَمْيَها ... من القوم حبّاتِ القلوب على عمد !
توخّى حِمامُ الموت أوسطَ صبيتى ... فلله كيف اختار واسطةَ العقد ؟
على حين شِمْتُ الخيرَ من لمحاته ... وآنستُ من أفعاله آيةَ الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيداً على قُرْبٍ قريبا على بُعْدِ
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدَها ... وأخلفتِ الآمالُ ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لُبْثُه ... فلم ينس عهدَ المهد اذ ضُمَّ فى اللحد
ألح عليه النزفُ حتى أحاله ... إلى صُفْرة الجاديّ عن حُمْرة الوَرْد
وظل على الأيدى تَسَاقَطُ نفسُه ... ويذوِى كما يذوى القضيب من الرَّنْدِ
فيالكِ من نَفْسٍ تساقَطُ أنفسا ... تساقط دُرٍّ من نِظامٍ بِلا عقد !
عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصَّلْدِ
وما سرّنى أن بعتُه بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غُصِبْتُه ... وليس على ظلم الحوادث من مُعْدِ
وانى وإن مُتِّعْتُ بابنىّ بعده ... لذاكرُه ما حنّت النِّيبُ فى نَجْدِ
وأولادنا مثل الجوارح : أيها ... فقدناه كان الفاجع البيِّن الفَقْدِ
لكلٍّ مكانٌ لا يسدّ اختلالَه ... مكانُ أخيه من جزوع ولا جَلْدِ
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ؟ ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟
لعمرى لقد حالت بِيَ الحالُ بعده ... فيا ليت شعرى كيف حالت به بعدى ؟
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانةَ العينين والأنف والحشا ، ... ألا ليت شعرى هل تغيرتَ عن عهدى ؟
سأسقيك ماء العين ما أسْعَدَتْ به ... وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعينىَّ ، جُودا لى ، فقد جُدْتُ للثرى ... بأنْفَسَ مما تُسْألان من الرفد

كأنىَ ما استمعتُ منك بضمة ... ولا شمة فى ملعب لك أو مَهْدِ
محمدُ ، ما شيءٌ تُوُهِّمَ سلوة ... لقلبىَ إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أوْرَى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذَّعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لى سلوة بل حزازةٌ ... يهجيانها دونى وأشقى بها وحدى
وأنت ، وإن أُفْرِدْتَ فى دار وحشة ، ... فإنى بدار الأنس فى وحشة الفرد
عليك سلام الله منى تحية ... ومن كلّ غيث صادق البرق والرعد

تُعَدّ هذه القصيدة واسطة العقد بين قصائد الرثاء فى الشعر العربى ، فهى قَبَسٌ من النار التى تعتلج فى قلب أب فقد صغيره وهو فى عمر الزهور ، بعد أن كان يبنى الآمال حول مستقبله ، ويتخيله وقد كبر وملأ الدنيا عليه سعادة ورضا ، فإذا بيد القدر تختطفه منه ، أو (كما يقول هو) « تغتصبه » . وهل يستطيع أحد أن يتصدى للدهر ؟ وهل من يعقب على قضائه ؟

والشاعر لا يخفى شيئا من لواعج فؤاده ولا يحاول ، ولكن يكشف لنا الغطاء عن قلبه فتتصاعد منه النيران والآلام المبرحة . وهو لا يدّعى شعورا لا يحسه ، وإنما يعبر عما يصطليه من لهيب تعبيرا تشم منه رائحة الضعف البشرى ومأساة الانسان حين يقف عاجزا مكتوف الأيدى أمام ضربة القدر الساحقة . وإذا كان هناك من يلوذ بالإيمان بقضاء الله والرضا بما تأتى به أقداره سبحانه ، فإن ابن الرومى يعترف بصراحة غير مشينة أنه ما كان ليرضى بفراق ابنه حتى لو أُعْطِى فى مقابله

الخلود فى جنات النعيم :

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

وكاتب هذه السطور لا يرى فى هذا الكلام تمردا على قضاء الله ، بل ضعفا بشريا لا أظن عفو الله يضيق عنه . أليس هو الرحمن الرحيم ؟ أليس هو خالق القلوب وجابلها على ما هى عليه من قوة حينا ومن ضعف فى كثير من الأحايين ؟

والشاعر تحاصره الآلام من كل جانب ، فهو إذا تذكر ما كان يرى فى ملامح ابنه من ذكاء وما كان يتوقعه له من خير يلذعه قلبه ، فقد مضى ذلك كله وأصبح فى خبر كان ، وصفرت يده من هذه الزهرة المتوردة التى صوحت بغتة وتمزقت أوراقها الرقيقة النضرة . وهو إذا تلفت حوله ووقعت عينه على ابنيه الآخرين ولم ير أخاهما معهما يلعب ويرتع كما يلعبان ويرتعان لذّعه قلبه ، وبدلاً من أن يكونا له سلوى تخفف عنه بعضا من لهيب فؤاده إذا بهما مبعث حرقات مضاعفة :

لكلٍّ مكانٌ لا يسد احتلالَه مكانُ أخيه من جزوع ولا جَلْدِ
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ؟ أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟

وتأمل كيف يجعل الأبناء كأنهم الجوارح ، فإذا فقدنا أحد أبنائنا فكأننا فقدنا جارحة من جوارحنا . ومتى كان فاقد بصره يتعزى عنه بأنه لا يزال ممتعا بسمعه ؟ أم متى كان أبتر الساقين يتسلى عنهما بأنه لا تزال له يداه ؟ إن الإنسان فى هذه الحالة لا يشعر إلا بما فقده ، أما ما لم يُحْرَمْ منه فإنه لا يلتفت إليه ولا يشعر به ، إذ وجوده فى نظره أمر

مفروغ منه :

وإنــي وإن مُتِّعْــتُ بابنــيّ بعــده   لذاكـره مـا حنَّت النِّيبُ فـى نَجْـدِ
وأولادنـا مثــل الجـوارح : أيهــا   فقدنـاه كـان الفاجَـع البيِّـنَ الفقـدِ

وكلنا يعرف ما الذى يحدث للميت إذ يوضع فى قبره ، ولكن ابن الرومى يتظاهر بأنه لا يعرف ، فهو يتساءل : يا ترى ما الذى حدث لابنى من بعدى ؟

لعمـرى لقـد حالـت بـى الحال بعـده   فيا ليت شعرى كيف حالت به بعدى ؟

وهل يجهل ذلك أحد ؟ وهل ثمة إلا الدود ينهش اللحم فلا يبقى إلا عظام نخرة ، وإذا بهذه الكتلة من الحياة التى كانت تملأ الدنيا حركة وضجيجا ، وكانت مفعمة بالآمال والمخاوف وشتى المشاعر ، قد اختفت من صفحة الوجود ؟ فكأن الشاعر ، وهو يتساءل عن مصير ابنه ، يحاول جاهدا أن يبعد عن عينيه منظر صغيره وقد استحال إلى جثة هامدة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها عدوان الدود والتراب فى ظلمات القبر . وهو يعود فيتساءل مرة أخرى بعد بيت واحد عن مصير ابنه ، ريحانة عينيه وأنفه وحشاه :

أريحانـةَ العينيـن والأنـف والحشــا   ألا ليت شعرى هل تغيرتَ عن عهدى ؟

فانظر كيف يحاول الانسان مخادعة نفسه عن الحقائق الصلبة المرة !

ومرة أخرى يعود الشاعر إلى هذه النقطة ، ولكنه فى هذه المرة ، وإن لم يستطع أن يمضى فى تجاهله لما حدث لصغيره فى ظلمات القبر وتحت أكداس الثرى ، فقد حاول أن يقلل من فظاعته ، إذ قصره على أن

ابنه سيكون هناك وحيدا لا أحد معه يذهب عنه مخاوف الظلمة أو يلاعبه :

وأنت ، وأن أُفْـرِدْتَ فـى دار وحشةٍ ، فانى بدار الأنس فى وحشة الفرد

وفى نهاية المطاف لا يجد ابن الرومى أمامه إلا أن يرسل لابنه التحية سلاما من الله ومن كل غيث صادق البرق والرعد .

والقصيدة بَعْدُ بناء متماسك ، وتشبه زفرة من لهيب مستعر . وهى تبدأ بدعاء الشاعر على المنايا وقسوتها ، إذ تعمد إلى مهجة القلب فترميها بسهامها القاتلة ، غير مبالية بآلامنا ولا آمالنا . ثم يمضى فيذكر كيف أن يد المنون قد اغتالت صبيه وهو لا يزال فى عمر الورود :

لقد قل بين المهد واللحد لبثه فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

كيف ، وقد كان وردة نضرة حمراء ، قد استحال بفعل النريف المتواصل لى صفرة الزعفران ، فجعلت نفسه تساقط قطعة بعد قطعة . فبا لها من ميتة تعذب الصبى وتعذب أهله وهم يرون روحه تزهق شيئا فى إثر شىء لا يملكون أن يردوا عنه عادية الموت وهى تتخطفه من أيديهم بغاية الهدوء ! ويتعجب الشاعر كيف لم يتحطم فؤاده بعد هذه الفاجعة . أيكون فؤاده أقسى من حجر الصوان ؟ لقد كانت هذه الفاجعة كفيلة بسحق القلوب التى قُدَّت من الحجارة . وينتقل الشاعر إلى الحديث عن معزة الأبناء وأن كلا لا يسد مسد الآخر ، ويصف ما أصبح يتجرعه من الغصص والحسرات ، فلا شىء يسليه ، ولا أحد يشعر بما هو فيه .

وانظر كيف يخاطب عينيه فى أول القصيدة فيطلب منهما أن تسعفاه بالبكاء ، الذى إن خفف عنه شيئا من لوعات نفسه فليس برادٍّ عليه طفله الحبيب . وتحس فى قول الشاعر وهو يقول لعينيه : « جودا فقد أَوْدَى نظيرُكما عندى » أنه يحسدهما على ماهما فيه . إن كل ما يطلبه أن يجودا بالدمع ، أما هو فقد فَقَدَ ابنه ، وهل يستوى الجود بدمعة مع الجود بفلذات الأكباد ، إن صح تسمية ذلك جودا ؟ فأى ألم هذا الذى يجعل صاحبه يحسد عينيه هو ، وكأنهما جار له مثلا يراه ممتعا بكل شىء بينما هو قد فقد كل شىء !

ويعود الشاعر لهذا المعنى قرب نهاية القصيدة فيقول :

أعينىَّ ، جودا لى فقد جُدْتُ للثرى بأَنْفَسَ مما تُسْأَلان من الرفد

برغم أنه قد قال قبل ذلك :

وما سرَّنى أن بِعْتُه بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعتُه طوعا ، ولكن غُصِبْتُه وليس على ظلم الحوادث من مُعْدِ

ولا أظن فى الأمر تناقضا إذ يقول لعينيه إنه جاد بابنه للتراب بينما قال قبلا إنه قد اغتصب منه اغتصابا ، فهو فيما بينه وبين نفسه يعلم تمام العلم أنه لم يُسْتَشَرْ فى هذه المصيبة ، ولكنه حين يلتمس من عينيه أن تسعفاه وتخففا عنه بالدموع السخينة يحاول أن يقلل من شأن ما يلتمسه منهما حتى لا تبخلا به أو تظنا أنهما تسديان إليه معروفا كبيرا . وهو ، وحاله هذه ، ليس بحاجة إلى من يمن عليه بشىء فيزيده آلاما على آلام .

وتأمل ما فى قوله : « ولكن غُصبْتُه . وليس على ظلم الحوادث من مُعْدِ » من حسرة بالغة وعجز مطلق . لقد غصبته الحوادث ابنه فلم يستطع أن يصمد لها ، ولم يجد من يقف إلى جانبه فيحمى له ابنه من أيدى الغاصبين أو يرده بعد أن تم اختطافه .

ويتعجب الشاعر كيف توخى الموتُ هذا الابنَ بالذات ، الذى كان من أخويه بمثابة أثمن جوهرة فى العقد . ولا يظن ظان أن ابن الرومى كان يكون سعيدا ، أو على الأقل أخف لوعة ، لو أن الموت قد اختار واحدا آخر من أبنائه ، ولكنه يريد أن يعبر عن تغيظه من الموت بأى سبيل ، وإلا فهو القائل :

وأولادنا مثل الجوارح : أيها فقدناه كان الفاجع البين العقد

فلو أن الموت تخطف أحد ولديه الآخرين لكان الألم هو هو . ومرارة الشكوى هى هى .

وتأمل هذه الصورة : « طواه الردى عنى » ، وكيف يبدو الصبى فيها وكأنه ثوب يُطْوى ويُنْشر ، بعد أن كان يملأ على أبيه حياته حبورا وسرورا .

أو هذه الصورة التى يتخيل فيها صغيره الغالى مرةً وردة حمراء وقد استحالت من تواصل النزف إلى زعفرانة صفراء صفرة الموت ، ومرة قضيبا من الرنْد وقد جف وذوى وفقد عطره وطيبه ، ومرةً حباتٍ من الدُرّ قد انفرطت من خيطها فتناثرت هنا وهناك ولم يعد إلى نظمها فى خيطها من

جديد سبيل :

ألـح عليـه النـزف حتـى أحالـه   إلى صفـرة الجادىّ عن حمـرة الورد
وظل على الأيـدى تَسَاقَـطُ أنفسـا   ويَذْوى كما يَذْوى القضيبُ من الرند
فيالـك مـن نفـس تساقـط أنفسا   تساقُـطَ دُرّ مـن نظـامٍ بـلا عقـد

وأرجو أن تقف أمام قوله : « وظل على الأيدى تساقط أنفسا » وما يستحضره فى الذهن من سهـر أهله عليه وقد أحاطوا به وقلوبهم واجفة ، وهم يرون أنفسهم عاجزين تماما عن أن يمدوا إليه يد العون ، وروحه تغادر جسده شهقة شهقة ، وحمرة الحياة تفارق خديه أمام صفرة الموت . أليس ذلك مما تطيش له العقول إلا من عصم ربك ؟

وأرجو أن تقف مرة أخرى أمام هذه الصور ، ولاحظ كيف حين شبَّهه قد شبَّهه بأشياء صغيرة رقيقة هشة لا تحتمل العنف ولا القسوة ، ولا تستطيع أن ترد عن نفسها عوادى الأيام ، كالزهرة والريحانة . ولاحظ أيضا أنه ، وهو يتذكر ابنه الحبيب ، يتمهل أمام أمور قد تبدو فى ظاهرها أمورا غير ذات بال ، ولكن دلالاتها لمن يتعمق النظر ويعرف طبيعة الحياة والنفس البشرية دلالات كبيرة :

كأنـى ما استمتعـتُ منـك بضمـة   ولا شمـة فـى ملعب لك أو مهـد

فما ضمة أو شمة عند قساة القلوب ؟ ولكنها عند الأب الولهان ، الأب الذى يقدر ما حباه الله به من نعمة الأولاد ، هى كل شىء . وهل أطفالنا إلا ضمة وشمة ومناغاة وابتسامة ؟ أليست هذه الأشياء مما تتضاءل إلى جانبها ، فى نظر الأب المحب الحساس ، الدنيا وما فيها ؟

وكما أن مثل هذه الأمور الصغيرة فى نظر العين ، الكبيرة فى نظر الوجدان ، هى التى تجعل للحياة طعما وبهجة ، فكذلك قد تلذّع هذه الأمورُ القلوبَ وتلوّعها تلويعا :

أرى أخويـك الباقييـن كليهمـا | يكونـان للأحزان أورى مـن الزنـد
إذا لعبـا فـى ملعـب لـك لذّعـا | فؤادى بمثل النار عن غير ما قصـد
فما فيهمـا لى سلـوة بـل حـزازة | يهيجانها دونى ، وأشقى بها وحدى

ومما يزيد تعاطف القارىء مع الشاعر فى مصيبته ويضاعف شعوره بالأسى أن ما يذكّر الشاعرَ بفقد ابنه لا رؤيتُه أبناء الجيران مثلا يلعبون أمام عينيه ، مما يمكن أن يكون شعورا بالحسد لا يتسق ونبل ما يحس به من مشاعر الأبوة ، بل رؤيتُه ولديه الآخرين . وفضلا عن ذلك ، فهو لا يحب أن يحرم ابنيه هذين من اللعب فى حضرته حتى لا يشعلا آلامه من جديد كلما هدأ أوراها ولو لبعض الوقت ، ولكنه يضحى بأحاسيسه من أجل أن يلعبا ويتقافزا ويمرحا . ولم يحرمهما من هناءة الطفولة ، وأعباؤهما من الحزن والفقد تنتظرهما عندما يكبران ويصبح كل منهما بدوره أبا ؟ فابن الرومى لا يحب أن يكون أنانيا يسبق الزمن ويضيق على ولديه قبل الأوان من أجل ألا تتضاعف غصصه وأشجانه . وإذن فلتهج حزازات نفسه يصطليها هو وحده ويشقى بها ، وليظل هذان العصفوران يطيران ويحطان هناك وهناك وهما يزقزقان فى فرحة وسعادة دون أن يدريا من هموم الدنيا الثقيلة شيئا .

شىء أخير أحب أن نلتفت إليه ، وهو أن الشاعر ظل يتحدث عن

ابنه بضمير الغائب وهو يطلب من عينيه أن تسعفاه بشيء من الدمع قد يخفف عنه بعض حرقات النار التى تحرق كبده ولكنه أبدا لن يرجع إليه صغيره الحبيب ، ولكن لما أن فاض به الكيل ووجد أن ليس شيء من ذلك ولا من تعجبه لأفاعيل الزمن وضربات القدر بمُغْنٍ عنه فتيلا تحول إلى ابنه يكلمه وكأنه موجود معه يسمعه ويمكن أن يرد عليه ، وهو ما يوحى بتضاعف الألم ، فهو لا يدرك أن ابنه قد قضى وانتهى وأن ليس إليه من سبيل ، أو كأنه يحاول أن يتغلب على هذه الآلام بتوهمه أنه لا يزال معه حيا . والبيتان التاليان اللذان تحدثت عندهما هذه النقلة من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب توضحان ما أقول :

ثكلتُ سروری کله إذ ثكلته ... وأصبحتُ فى لذات عيشى أخا زهد

أريحانةَ العينين والأنف والحشا ... ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى؟

ففى البيت الأول نراه وقد بلغت آلامه أقصاها ، فأصبحت الحياة فى نظره قاتمة السواد ولم يعد فيها ما يغريه بالتعلق بها ، وفى البيت الثانى نجده ينكفىء إلى ابنه ، الذى لم يعد فى الدنيا من بعده سلوة ، فيخاطبه ناسيا أنه ، وقد مات ، لا يستطيع أن يسمعه بله يفهمه ، فتبدأ بذلك دورة أخرى من العذاب والألم لا يجد الشاعر مخرجا منها إلا بأن يفيء إلى الله يدعوه بأن يفيض على ابنه ، فلذة كبده ، السلام والسكينة فى مثواه ، وأن يسقى قبره بماء الغيث حتى يذهب عنه الجدب والجفاف :

عليك سلام الله منى تحيةً ... ومن كل غيث صادق البرق والرعد !

البحتري في وصف إيوان كسرى

صُنْتُ نفسي عما يدنّس نفسي وترفّعتُ عن جَدا كل جِبْس
وتماسكت حين زعزعني الدهـ ـر التماسا منه لتعسي ونكسي
بُلَغٌ من صبابة العيش عندي طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد ما بين وارد رفه عَلَلٍ شُرْبُه ، ووارد خمس
وكأن الزمان أصبح محمو لاً هواه مع الأخسّ الأخس
واشترائي العراق خطة غَبْن بعد بيعي الشآم بيعة وَكْس
لا تَرُزْني محاولا لاختباري عند هذي البلوى فتنكر مسّي
وقديما عهدتَني ذا هنات آبيات على الدنيّات شُمْسِ
ولقد رابني نبوّ ابن عمي بعد لين من جانبيه وأنس
وإذا ما جُفيتُ كنت حريّا أن أرى غير مصبح حيث أمسي
حضرتْ رحلي الهمومُ فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عَنْسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس
ذكرتنيهم الخطوبُ التوالي ولقد تُذْكِر الخطوبُ وتنسي
وهمو خافضون في ظلّ عال مشرف يُحْسِر العيون ويُخْسي
مغلق بابه على جبل القبـ ـق إلى دارتي خلاط ومكس
حلَلٌ لم تكن كأطلال سُعْدَى في قفار من البسابس مُلْس
ومساع لولا المحاباة مني لم تُطِقْها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدهن عن الجـ ـدة حتى غدوْن أنضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنـ ـس وإخلاله بنيّة رمس
لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بِلَبْس
فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايـــا مواثـلٌ ، وأنوشـــر وانُ يزجى الصفوف تحت الدِّرَفْسِ
فى اخضرار من اللباس على أصـ ـفـر يختال فى صبيغـة وَرْسِ
وعــراك الرجـــال بيــن يديه فى خفوت منهم وإغماض جَرْسِ
مِنْ مُشِيحٍ يهوى بعامل رمح ومُلِيـحٍ مــن السنـان بتُـرْسِ
تصف العيـن أنهم جد أحيـا ء لهم بينهم إشـارة خـرس
يغتلى فيهم ارتيابـىَ حتـى تتقراهمـو يـداى بلمـس
وكأن الايوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعنَ جِلْسِ
يُتَظَنَّـى مـن الكآبـة أن يبـ ـدو لعينَـىْ مصبِّح أو مُمَسِّى
مُزْعَجا بالفراق عن أنس إلـف عزّ ، أو مُرْهَقا بتطليق عِـرْسِ
عكست حظَّه الليالى ، وبات المشـ ـترى فيه وهو كوكب نحس
فهـو يبـدى تجلـدا وعليـه كلكل من كلاكل الدهر مُرْسى
لم يعبـه أن بُزَّ مِنْ بُسُـطِ الديـ ـباج واستُلَّ من ستور الدِّمَقْسِ
مُشْمَخِرٌ تعلـو لـه شرفـات رُفِعَتْ فى رؤوس رَضْوَى وقدس
لابسات مـن البياض فما تبـ ـصر منها إلا غلائل بـرس
ليس يُدْرَى أصُنْعُ إنس لجن سكنـوه أم صنـع جن لإنـس
غير أنـى أراه يشهد أن لـم يك بانيـه فى الملوك بنِكْـس
عُمِرت للسـرور دهـرا فصارت للتعـزى رباعُهـم والتأسـى
فلهـا أن أعينهـا بدمـوع موقفـات على الصبابـة حُبْـس
ذاك عنـدى ، وليست الدار دارى باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غير نُعْمَى لأهلها عند أهلـى غرسوا من زكائهـا خير غرس
أيـدو ملكنـا ، وشـدوا قواه بحماة تحت السَّنَـوَّر حُمْسِ
وأعانـوا علـى كتائـب أريـا ط بطعن على النحور ودعس
وأرانـى مِنْ بَعْـدُ أكْلَفُ بالأشـ ـراف طُرًّا من كل سِنْخٍ وجنس

هذه القصيدة هى فى الحقيقة تَفَكُّرٌ فى عبرة الدهر الخالدة ، وهى

ألا شيء يبقى على حال : فالزمن دوار ، وصروف الحياة تقلب الأوضاع فتجعل العالى سافلا والسافل عاليا ، إلا أن الكريم يثبت أمام ضربات القدر لا يهون ولا تهن عزيمته ، ويظل شامخ الأنف ، عالى الهمة ، متماسك النفس ، لا يضرع للجنناء الأخساء .

وإذا كان الشاعر قد تناول فى معظم أبيات القصيدة وصف إيوان كسرى ، فإن هذا الوصف لم يرد فى الواقع لذاته ، بل أتى فى سياق أوسع من ذلك ، وهو وقوف البحترى متعجبا من تقلب الحظوظ ، تلك الحظوظ التى أطاحت به من حيث كانت حياته آمنة مستقرة ، وارتفعت بالأذلاء الأدنياء إلى حيث يظنون أنهم يستطيعون التحكم فى رقاب النبلاء أصحاب الشرف والفضل . ونظرة واحدة إلى الأبيات التى ورد فيها وصف الإيوان تنبيك عن أن البحترى قد قصد إلى الإشارة لما لحق هذا الإيوان من خراب ووحشة بعد أنس وعمار وحياة موارة ملء السمع والبصر والفؤاد . وقد ساق الشاعر هذا كله بحيث يكون مصير الإيوان مرآة لما حدث له هو نفسه . وتستطيع أن تقارن ببين قوله عن نفسه :

صنتُ نفسى عما يدنّس نفسى وترفعت عن جدا كل جِبْس

وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ـر التماسا منه لتعسى ونكسى

بُلَغٌ من صبابة العيش عندى طففتها الأيام تطفيف بخس

وقوله عن الايوان :

عكست حظَّه الليالى وبات المشـ ـترى فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدى تجلـــدا وعليـــه كلكل من كلاكل الدهر مُرْسى

لم يعبه أن بُزَّ من بُسُطِ الديـ ... باج واستُلَّ من ستور الدِمَقْس

مشمخرٌ تعلو له شرفات ... رُفِعَتْ في رؤوس رَضْوَى وقُدس

ألا ترى أن الأمور واحدة هنا وهناك ، وأن الإيوان وما وقع له من نكبات إنما يعكس ما أصاب الشاعر من نكسات (وذلك بعد مقتل المتوكل ، الخليفة العباسي ، الذي كان يقرب البحتري إليه ، فخرج عليه جماعة من جنده الأتراك ، بتواطؤ مع ابنه المنتصر ، حين خاف أن تخرج الخلافة من يده بعد أن تغير قلب أبيه عليه ، وقتلوه بمرأى من البحتري) : فالشاعر قد زعزعه الدهر محاولا أن يتعس حياته وأن يقلب حظه رأسا على عقب ، ولكنه تماسك أمام هذه الزعازع ، وصان نفسه عما يدنسها وينال من نبلها ورفعتها ، ولم يمد يده للنذل الدنيء . والإيوان قد عكست حظه الليالي ، ولكنه تجلد أمام مصائب الدهر ، وبقي كما كان ، مشمخر البنيان سامق الشرفات يناطح الجبال رفعة وجلالا .

ولهذا التشابه في المصير وجّه الشاعر دابته إلى هذا الإيوان يتملّى ما أوقعه الدهر به ليتعزى عما أصابه هو :

حضرتْ رحليَ الهمومُ فوجّهْـ ... ـتُ إلى أبيض المدائن عَنْسي

أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحلٍّ من آل ساسان دَرْسِ

ذكرتنيهم الخطوبُ التوالي ... ولقد تُذْكِر الخطوب وتُنْسِي

وأية خطوب ؟ لقد كان البحتري في معية الخليفة حين باغته الجند الأتراك وقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك كله بتحريض من المنتصر ولي عهد المتوكل وابنه . ولعل البحتري كان يقصد المنتصر هذا

حين قال فى مطلع القصيدة :

صنتُ نفسي عما يدنس نفسي ... وترفعت عن جدا كل جِبْس

فقد قال فيه قبل ذلك فى رائعته التى رثى فيها المتوكل :

أكان وليُّ العهد أضمر غدرةً ... فَمِنْ عَجَب أن وُلّيَ العهدَ غادرُه

فلا مُلِّيَ الباقي تراثَ الذى مضى ... ولا حملت ذلك الدعاءَ منابرُه

ولا وأل المشكوكُ فيه ولا نجا ... من السيف ناضى السيف غدراً وشاهره

فإذا صح هذا الاستنتاج فينبغى ألا تخدعنا لهجة العتاب فى البيت التالى :

ولقد رابني نُبُوُّ ابن عمي ... بعد لين من جانبيه وأُنْس

فان البيت الذى يتلو ذلك مباشرة هو :

وإذا ما جُفيتُ كنت حَرِيًّا ... أن أرى غير مُصبحٍ حيث أُمسي

وليس هذا بالكلام الذى يقال لخليفة يدعوه الشاعر « ابن عمه » . كل ما فى الأمر أن الشاعر ، إذا صح استنتاجنا ، لم يشأ أن يعاود الحملة العنيفة على « المنتصر » جهارا نهارا ، كما فعل فى قصيدته السالفة الذكر ، وبخاصة بعد أن هدأت ثائرته لما ارتكبه ولى العهد من خيانة وغدر ، وبعد أن أصبح ولى العهد هذا خليفة فأطلق القول مبهما عاما وكأنه لا يقصد به أحدا بعينه . وما دمنا بسبيل الاستنباط فإن من الممكن جدا أن نرى فى الأبيات التالية ، التى يصور فيها البحترى ما حل بالايوان ، إشارة إلى ما حل بقصر المتوكل وساكنيه بعد اغتياله من أحزان ثقيلة على ما كان يسوده قبلا من بهجة وأنس :

لـو تـــراه علمـــت أن الليالـــى جعلت فيـه مأتما بعـد عُـــرْسِ

* * *

يُغْظَنَّـــى مـــن الكآبـــة أن يبـــدو لعينـــى مصبّـــح أو مُمَسّـى

مُزْعَجـا بالفراق عن أنـس إلـف عـــزّ ، أو مُرْهَقًا بتطليق عِـرْسِ

* * *

عُمِـرَتْ للسـرور دهـرا فصـارت للتعـــزى رباعُهـــم والتأســـى

فلهـــا أن أعينهـــا بدمــــوع مُوقَفـات على الصبابـة حُبْــسِ

ذاك عندى ، وليست الدار دارى باقتـراب منهـا ، ولا الجنس جنسى

فإن صح استنباطنا هذا يكن هذا البيت الأخير وخزة أخرى من وخزات البحترى ، وكأنه يقول : إنه إذا كان هذا هو موقفى من إيوان كسرى ، الذى أقامه هذا الامبراطور الفارسى فى بلاد لا أمتّ إليها ولا إلى أهلها بأية وشيجة ، فكيف يكون موقفى مما حدث للمتوكل ، وهو الحاكم العربى المسلم ، ولقصره المقام فى بلد عربى مسلم ؟ وتأمل هذا البيت ثانية :

فلهـا أن أعينهـــا بدمـــوع مُوقفـات على الصبابـة حُبْـسِ

فهل تظن أن البحترى قد بلغ به حب هذا القصر وبانيه وحزنه على ما آل إليه أمره بعد هذا الزمن المتطاول إلى حد أن يبكيهما بهذه الدموع الحَرَّى ، هذه الدموع التى يقول إنه قد وقفها على « الصبابة » ؟ أم هل كان البحترى يقصد قصر المتوكل ولكنه كنَّى عنه بالإيوان ؟ .

ثم ألا يمكننا أن نرى فى الأبيات الآتية قَدْحا فى الجند التر. الذين ، بدل أن يشدوا الملك العربى كما كان الأحرى بهم أن يفعلوا ، قد

اغتالوا خليفتهم اغتيالا خسيسا ، وذلك على عكس الفرس ، الذين عضدوا ملك العرب مرتين : مرة قبل الاسلام ومرة بعده ؟

ذاك عندى ، وليست الدار دارى — باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غير نُعْمَى لأهلها عند أهلى — غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا مُلْكَنا ، وشدوا قواه — بحماة تحت السَّنَوَّر حُمْس
وأعانوا على كتائب أريا — ط بطعن على النحور ودَعْس

كذلك أليس البيت الذى يلى هذه الأبيات والذى تختتم به القصيدة ، وهو :

وأرانى مِنْ بَعْدُ أكْلَفُ بالأشـ — ـراف طُرًا من كل سِنْخٍ وجنس

تعريضا بنذالة الجند الأتراك وحقارة ما صنعوه بولى نعمتهم ، والدرك الذى تسفّل إليه المنتصر إذ تواطأ مع مثل هؤلاء الجند على قتل أبيه ، ليخلو له وجه الحكم والسلطان ؟ وتكون القصيدة قد رجعت بذلك البيت عودا على بدء : ففى أولها يتمدح الشاعر بأنه لا يمد يده إلى أى خسيس جبان :

صنتُ نفسى عما يدنس نفسى — وترفعتُ عن جدا كل جِبْس

وفى نهايتها يفتخر بأنه يجل الأشراف ذوى المروءة والهمة العالية مهما يكن جنسهم :

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ — ـراف طار من كل سنخ وجنس

القصيدة إذن تعالج موضوعا واحدا هو تقلب صروف الدهر على الكائنات جميعا من بشر وحجر ، ويخيم عليها جو نفسى واحد هو جو الأسى العميق ، الذى تناسبه قافية السين بهمسها ووسوتها . فهذا سبب

من أسباب قوة هذه القصيدة وجمالها وتأثيرها . وسبب آخر هو ما فيها من حرارة الصدق ، فقد كان الشاعر يعيش فى دعة ورفاهية فى ظل المتوكل ، ثم إذا بهذا الخليفة يُغْتَال أمام عينيه ، فينظم قصيدة كأن كلماتها من ضرام يحمل فيها على من قتلوه ، ويعرّض بولى العهد تعريضا يقرب أن يكون تصريحا . وعندما يلى ولى العهد الخلافة فإن أقل ما يتوقع فى هذه الحالة أن يتجه للشاعر ، مما يحمله على ترك بغداد والرحيل إلى المدائن ليتأسى عن مصيره بما أصاب إيوان كسرى ، الذى كان ملء السمع والبصر والألسنة ، فإذا به قد هجره الأنس وبات منعقا للبوم . ورنة الحزن والأسى واضحة فى هذه الأبيات التى يصور فيها الشاعر انقلاب أحواله :

وتماسكتُ حين زعزعنى الدهـ	ـر التماسا منه لتعسى ونكسى
بُلَغٌ من صبابة العيش عندى	طففتها الأيام تطفيف بَخْس
وبعيدٌ ما بين وارد رفه	علل شربه ووارد خمس
وكأن الزمان أصبح محمو	لاً هواه مع الأخسّ الأخس
واشترائى العراقَ خطة غبن	بعد بيعى الشآم بيعةَ وَكْسِ
لا تَرُزْنِى مزاولا لاختبارى	عند هذى البلوى فتنكر مَسّى

ونظرة سريعة إلى ما تردد فى هذه الأبيات من ألفاظ « الزعزعة والتعس ، والنكس ، وتطفيف البخس ، والخسة ، وبيع الوكس والبلوى » تنبيك عن مدى ما يثقل نفس الشاعر من شجن وما يحسه من ضيق بالدهر ، الذى يتخيله إنسانا معاديا ، فهو يزعزعه بغية إتعاسه

ونكسه ، وهو يطفف حتى القليل الذى أبقى له عليه تطفيف بخس ، وكأنه وزّان أو كيّال مخادع يستغفله ويعطيه أقل كثيرا جدا مما يستحقه . ويتعجب الشاعر من هذا الوضع ، فيحاول تفسيره ، ويكون أول ما يرد على خاطره أن الزمان ربما كان مائلا بهواه مع الأخساء ضد أهل الفضل والكرامة . ويبلغ ضيق الشاعر مداه حين يُهيب بنا ألا نحاول الاقتراب منه أو الحديث إليه بغية معرفة ما طرأ على شخصيته من تغيرات نتيجةَ هذه الأوضاع المعكوسة ، فإننا لو فعلنا ذلك لأنكرنا منه وعورة نفسيته بعد أن كان لين الجانب سمح الطبع . ثم تتراكم الهموم على نفس الشاعر وتتكاثف فلا يجد مناصا من التحول عن بغداد جمعاء . وانظر كيف عبر الشاعر عن ذلك بأن صَوَّر الهموم وقد حضرت إلى رحله ، مما جعله يركب دابته وينطلق بعيدا ، تاركا لها المكان بما فيه ومن فيه ، غير مطيق أن يقعَ له عليها بصر . وانظر كذلك كيف يقرن بين حظه السىء وبين ما توالى من خطوب على إيوان آل ساسان . أليس يتسلى المنكوبون بلقاء بعضهم بعضا يتشاكون همومهم فتخف آلامهم حين يجدون أنهم ليسوا وحدهم الذين أحاطت بهم المصائب ، بل لهم فى النكبات أشباه ؟

حضـرت رَحْلِـىَ الهمومُ فوجَّهـ ـت إلـى أبيـض المدائـن عَنْسـى
أتسلـى عـن الحظـوظ وآسَـى لمحـلٌ مـن آل ساسـان دَرْسِ
ذكَّرتْنيهـم الخطـوبُ التوالـى ولقـد تُذْكِـرُ الخطـوب وتُنْسِـى

وأجمل ما فى التعبير عن هذا الحزن أن الشاعر قد عكسه على الإيوان ، مما أكسبه قوة وحرارة وشدة تأثير ، إذ أصبح وكأن أحزان الإيوان صدًى

له يقوّيه . ثم يأتى الشاعر بعد ذلك فيأسى بدوره لهذا الإيوان ، فنحس أنه قد أوتى نفسا نبيلة ، نفسا لا تعرف الكزازة والانغلاق على الذات ، بل لا تلهيها آلامها هى عن آلام الآخرين والتعاطف معهم والبكاء لهم بكاء مبعثه الحب ، بل بكاء غير معهود إلا لدى أهل الصبابة والوجد . وهذا كله رغم أن ليست الدار داره ، ولا أهلها أهله ، ولكنهم من أهل الشرف ، وهو بأهل الشرف متعلق :

عُمِّرَتْ للسرور دهرا فصارت ... للتعزى رِبَاعُهم والتأسى

فلها أن أعينها بدموع ... مُوقَفَات على الصبابة حُبْس

ذاك عندى ، وليست الدار دارى ... باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى

....

وأرانى مَنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بالأشـ ... ـراف طُراًّ من كل سِنْخٍ وجنس

وذلك فضلا عما للفرس من أياد على العرب والعروبة كما سلف القول . وأحب أن تقف قليلا عند قوله عن دموعه التى ذرفها أمام الإيوان إنها : « دموع موقفات على الصبابة حبس » ، وكأنها وَقْفٌ قد حبسه صاحبه للإنفاق منه فى هذا الغرض النبيل !

ومن أسرار جمال القصيدة أيضا هذه الأبيات التى يصف فيها البحتريُّ ما كان مصورا على جدران الإيوان من معارك دارت رحاها بين الفرس والروم :

فإذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثلٌ ، وأنوشر ... وان يُزْجى الصفوف تحت الدِّرَفْس

فى اخضرار من اللباس على أصـ ... ـفر يختال فى صبيغة وَرْس

وعــــراك الرجـــال بيـــن يديـه فــى خفـوت منهم وإغماض جَرْسِ

مـن مُشِيـحٍ يهـوى بحامـل رمـح ومُلِيـحٍ مـــن السنـــان بتـرس

تصــف العيــن أنهـم جـد أحيـا ء لهـم بينهـم إشــارة خُـــرْسِ

يَغْتَلِـــى فيهـــم ارتيابىَ حتـــى تتقراهمـــو يـــداى بلمـــس

إن هذا لهو السحر بعينه ! أرأيت كيف ينقل لك البحترى المنظر من خلال عينه العبقرية ؟ فأنت إذا وقفت أمام صورة المعركة على جدران الإيوان أحسست بالخوف ، وقد اصطف الجيشان متواجهين ، كأنك تراهما حقيقة بعين البصر لا بعين الخيال ؟ لا بل إنك لترى المنايا واقفة هناك تنتظر أن تجمع حصادها من أرض المعركة حين يلتحم الجيشان ، فتُنْتَضَى السيوف وتُصَوَّب الرماح وتطير الرؤوس وتخر الأبطال صرعى يتشخب كل منهم فى دماه . ثم أرأيت كيف لم يفت الشاعرَ تسجيلُ إشراف أنوشروان على تنظيم جنوده صفوفا تحت علم الإمبراطورية المرفرف فى السماء وحثهم على اقتحام الهول واكتساح الأعداء ، وقد ارتدى شِكّة القيادة الزاهية الألوان من أخطر وأصفر وأحمر . ولا تنس أن تلتفت إلى تشخيصه الصفرة وجَعْلها تختال فى صبيغة ورس ، افتتانا منها بجمالها ؟ أو كيف بصور القتال نفسه من الهُوىَ بالرماح ، والاتقاء بالتروس ؟ ان الشاعر مبهور بما يرى ، وإنه ليتساءل : أليست هذه معركة حقيقية ؟ ولكن ما للجند لا يتكلمون ، ويكتفون بالإشارات كأنهم خرس قد انعقدت ألسنتهم ؟ ويبلغ الشك بالشاعر إلى الحد الذى يدفعه إل أن يمد يديه يلمس بهما الجنود وقادتهم ليصل إلى بر الحقيقة . فتأمل كيف لم يدع تسجيل الحركة أو

اللون أو الصوت .

ثم يلتفت الشاعر إلى ما يسود الإيوان من وحشة حتى لـ :

يُتَظَنَّى من الكآبة أن يبـ ـدو لعيني مصبّح أو ممسّى
مُزْعَجا بالفراق عن أنس إلف عزَّ ، أو مُرْهَقًا بتطليق عِرْسِ

فتمعن كيف لم يجد الشاعر ما يصور به وحشة الايوان إلا تشبيهه بحبيب قد أزعجه هجران حبيبته المدلّة بجمالها غير مبالية بقلبه الذى حطمته ، أو تخيُّله عروسا قد أرهقته عرسه التى كان متدلها فى حبها ، فطلقها فزاده التطليق إرهاقا إلى إرهاق ولا يفتك ما فى كلمة « العِرْس » من ايحاء بأن الرواج ما كاد أن يتم حتى وقع الطلاق ، مما يجعل الفراق ...سد وأفظع وأبشع إيلاما إلا أن القصر مع ذلك يتجلد لما أصابه ، ولا يظهر ضعفا ، صنع الانسان الكريم الذى ينفر من التضعضع أمام ضربات لدهر ، ويظل برغم تتابع البلاء رافع الرأس شامخ الانف :

فهو يبدى تجلدا ، وعليه كلكل من كلاكل الدهر مُرْسِى

وإذا كان البحترى حين وقف يتملى صورة معركة أنطاكية على جدران القصر قد بلغ به الارتياب حدا جعله يتقرى الجنود وأسلحتهم بيده ليعرف أهم جنود حقيقيون أم أن الأمر لا يعدو مجرد براعة فى التخيل والتصوير ، فإنه من انبهاره بجمال الإيوان بأجمعه وجلاله قد شملته الحيرة فلم يعد يعرف مَنْ بناه لمن : أهم الجن قد بنوه للأنس أم العكس ؟

ليس يُدْرَى أصُنْعُ إنس لجنّ سكنوه أم صنع إنس لِجنّ

ميمية المتنبى فى عتاب سيف الدولة

واحَرَّ قلباه ممّن قلبه شَبِمُ — ومَنْ بجسمى وحالى عنده سَقَمُ
مالى أكتّم حبًّا قد برى جسدى — وتدّعى حبَّ سيف الدولة الأُمَمُ
إن كان يجمعنا حبٌّ لغُرَّته — فليت أنّا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مُغْمَدَةٌ — وقد نظرت إليه والسيوف دمُ
فكان أحسنَ خلق الله كلهمو — وكان أحسنَ ما فى الأحسن الشِّيَمُ
فَوْتُ العدو الذى يمَّمْته ظَفَرٌ — فى طيّه أسفٌ فى طيّه نِعَمُ
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت — لك المهابةُ ما لا تصنع البُهَمُ
ألزمْتَ نفسك شيئا ليس يلزمها — ألاّ تواريهم أرضٌ ولا عَلَمُ
أكلما رُمْتَ جيشا فانثنى هربا — تصرّفَتْ بك فى آثاره الهمم ؟
عليك هَزْمُهُمو فى كل معتركٍ — وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظَفَرًا حلوا سوى ظَفَرٍ — تصافحتْ فيه بِيضُ الهند واللِّمَمُ ؟
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ، — فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكمُ !
أُعيذها نظراتٍ منك صادقة — أن تحسب الشحم فيمن شحمه وَرَمُ
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره — إذا استوت عنده الأنوار والظُّلَمُ ؟
سيعلم الجمع ممن ضمَّ مجلسُنا — بأننى خير من تسعى به قدمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى — وأسمعتْ كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها — ويسهر الخلق جرّاها ويختصم
وجاهلٍ مدّه فى جهله ضحكى — حتى أتته يدٌ فراسةٌ وفمُ
إذا رأيت نيوب الليث بارزة — فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم
ومهجةٍ مهجتى مِنْ هَمِّ صاحبها — أدركتُها بجوادٍ ظهره حَرَمُ
رجلاه فى الركض رِجْلٌ ، واليدان يد — وفِعْلُه ما تريد الكف والقَدَمُ
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به — حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى — والحرب والضرب والقرطاس والقلم

صحبت فى الفلوات الوحشَ منفردا حتى تعجّب منى القور والأكم
يا من يعز علينا أن نفارقهم وِجْدانُنا كلَّ شيء بعدكم عَدَم !
ما كان أخْلَقَنا منكم بتكرمة لو أن أمركمو من أمرنا أَمَمُ !
إن كان سرّكمو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمو ألم
وبيننا ، لو رعيتم ذاك ، معرفة إن المعارف فى أهل النُّهى ذِمَمُ
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره اللهُ ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ! أنا الثريا ، وذان الشّيْبُ والهَرَمُ
ليت الغمام الذى عندى صواعقه يزيلهن إلى من عنده الدِّيَمُ
أرى النوى يقتضينى كلَّ مرحلة لا تستقلّ بها الوَخّادةُ الرُّسُمُ
لئن تركن ضُمَيْرا عن ميامننا لَيَحْدُثَنَّ لمن ودعتُهم نَدَمُ
إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هُمُ
شر البلاد مكانٌ لا صديق به وشرُّ ما يكسب الانسان ما يَصِمُ
وشر ما قَنَصَتْهُ راحتى قَنَصٌ شُهْبُ البزاة سواء فيه والرَّخَمُ
بأى لفظ تقول الشعر زِعْنِفَةٌ تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ
هذا عتابك إلا أنه مِقَةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ ، إلا أنه كَلِمُ

كاتب هذه السطور يبغض شعر المديح القائم على مجرد الرغبة فى التكسب ، ويستغرب كيف راج إلى هذا الحد المخيف فى الدولة الإسلامية ، حيث كان ينبغى أن يأتى الحاكم إلى الحكم بإرادة الأمة وحدها واختيارها ، وحيث المال هو مال الأمة ينوب عنها هذا الحاكم فى تصريفه فى وجوه الخير والمنفعة العامة . فمثل هذا الحاكم ، لو جرت الأمور على ما كان ينبغى أن تجرى عليه ، ما كان بحاجة إلى أولئك المنافقين ، الذين تطالعنا سحنهم الكريهة أينما قلبنا فى ديوان الشعر

العربى . ومثل هذا الحاكم أيضا ، لو أن الأمور مضت على خطة الإسلام وشريعة العدل والإنصاف ، ما كان ليمد يده إلى مال المسلمين يغترف منه الآلاف المؤلفة ليجزى بها هذا الشاعر المنافق أو ذاك على شيء لا يعود على الأمة بأى نفع ، وكأنه ماله أو مال أبيه . أما المديح القائم على الإعجاب بالخلق النبيل والإنجازات القومية العظيمة فهو عاطفة إنسانية صادقة وسامية لا يمكننا الغض منها . وإلى هذا اللون من المديح تنتمى مثلا قصيدة أبى تمام الخالدة على وجه الدهر فى فتح عمورية ، وكذلك مدائح المتنبى لسيف الدولة ، فقد أحرز ممدوحا الشاعرين للإسلام مجدا عظيما ارتفعا به إلى أعلى عليين فى تاريخ العرب والمسلمين .

ذكرت هذا كمقدمة لقصيدة المتنبى هذه التى يعاتب فيها سيفَ الدولة مدلا بنفسه وسمو همته وعظمة شعره ، ويتهدده بأنه ، إن لم يغير من خطته ويثُبْ إلى سالف عهده معه ، مفارقه إلى بلاد بعيدة ، فإن هذه القصيدة تضم ، فيما تضمه ، أبياتا يمجد فيها الشاعر جهاد سيف الدولة فى سبيل الله ، وانتصاراته المدوية على علوج الروم ، فسيف الدولة إذن كان جديرا بهذا المدح من شاعر العربية الأكبر . ولاشك أن العربى والمسلم يفور كيانه كلما سمع شيئا من شعر المتنبى فى هذا البطل الصنديد ، تحرقا إلى بطل صنديد مثله يجأ أعداء العروبة والاسلام فى بطونهم وأعناقهم ، ويقتلهم تقتيلا يشفى به صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . أنصت إلى الشاعر العملاق وهو يقول (مع ملاحظة أن هذه

الأبيات ليست هى صلب القصيدة ، فالقصيدة ، كما سلف القول ، هى فى المعاتبة) :

قـد زرتُـه وسيوف الهند مغمدة ... وقـد نظـرت إليـه والسيوف دمُ
فكـان أحسـن خلـق الله كلهـم ... وكان أحسن ما فى الأحسن الشّيَمُ
فَـوْتُ العـدو الـذى يمّمْتَه ظَفَرٌ ... فـى طَيِّـه أسـف فـى طيّه نِعَمُ
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابـة مـا لا تصنـع البُهَـمُ
ألزمت نفسـك شيئـا ليس يلزمها ... ألا تواريهـم أرض ولا عَلَـمُ
أكلمـا رمت جيشا فانثنى هربـا ... تصرفَتْ بـك فـى آثـاره الهمم ؟
عليـك هزمهمـو فـى كـل معترك ... وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما تـرى ظَفَـرًا حلـوا سوى ظَفَرٍ ... تصافحت فيه بيض الهند واللِّمَمْ ؟

لكأن المتنبى يعرب عما يجيش فى قلوبنا الكليمة من آمال ، فهو يصور بطله ذا همة لا ترضى إلا الانتصار الساحقِ المبين الذى لا يبقى على هؤلاء العلوج ولا يذر . وتأمل بخاصةٍ البيت الأخير وما يعكس من رغبة الشاعر العارمة (وإن جعلها رغبة سيف الدولة نفسه ، ولكنّ إعجاب الشاعر ببطله وبأفعاله المجيدة يشى بأنها رغبته هو أيضا) بأن يرى الصوارم البيض تحتز هذه الرقاب النجسة (وقد عبر عن ذلك ، على طريقته الساخرة ، بأن السيوف إنما تصافح الرؤوس) :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظَفَرٍ ... تصافحت فيه بيض الهند واللِّمَمْ ؟

وفضلا عما يجده العربى والمسلم فى كل عصر ومصر (وبخاصة فى هذا العصر الذى بلغ فيه المسلمون والعرب من الهوان حدا لا يطاق) فى هذه القصيدة من تصوير بطولة سيف الدولة ، الذى يصلح أن يكون رمزا على

البطل المرتقب ، فإن ما تعكسه هذه الأبيات من نفسية المتنبى الأبية المترفعة عن الدنايا المعتزة بكرامتها حتى فى وجه الحاكم الذى تحبه وتتعلق به وتراه المثال الأعلى للبطولة الماجدة لما يضفى على القصيدة قيمة فوق قيمتها . اسمع كيف يفتخر المتنبى بنفسه وهو ينشد قصيدته على مرأى ومسمع من سيف الدولة ومن حاشيته :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسُنا	بأننى خير من تسعى به قدمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى	وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها	ويسهر الخلق جَرّاها ويختصم
وجاهلٍ مدّهُ فى جهله ضحكى	حتى أتته يد فَرّاسةٌ وفَمُ
إذا رأيتَ نيوب الليث بارزة	فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجةٍ مهجتى مِنْ هَمّ صاحبها	أدركتُها بجواد ظهره حَرَمُ
رجلاه فى الركض رِجْلٌ ، واليدان يدٌ	وفعله ما تريد الكف والقدمُ
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى	والحرب والضرب والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا	حتى تعجب منى القور والأكَمُ

وليس بالسهل أن نرمى هذا الشعر بأنه مجرد كلام ، فقد كان المتنبى يعنيه ، وكان يريد به أن يَفْهم أعداؤه من حاشية الأمير أنه يحتقرهم ولا يعدهم أندادا له ، وفيهم من يمت إلى هذا الأمير بصلة القربى . بل أعد النظر كرة أخرى إلى البيت الأول من هذه الأبيات تجد أنه لم يستثن أحدا ممن كانوا فى ذلك المجلس ولا سيف الدولة نفسه :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسُنا — بأننى خير من تسعى به قَدَمُ

صحيح أن الأبيات التى تلى ذلك قد توحى بأنه يعنى أعداءه ، ولكن يبقى بعد ذلك أنه حين أطلق هذه الصيحة لم يتحوط ولم يَخَفْ ، ولم يستثن ولم يعتذر . فهل ثمة نفسية بين شعراء العصر أو أى عصر آخر بلغت من التماسك والجراءة والثقة هذا المبلغ ؟ إن الشعور بالكرامة الذاتية مطلوب ومحبوب فى كل زمان ومكان ، وإن النفوس النبيلة لتستعذبه وتستزيده ، وانها لَتُكْبِر كل من يضع نفسه ، عن جدارة واستحقاق ، فى هذا المحل الأرفع . ولاشك أن المتنبى كان ذا همة رفيعة ومواهب سامقة تطاول النجوم ، ومن ثمة حَقَّ له الادلال بنفسه على هذا النحو الملهم العجيب .

ولا يقل عن ذلك سموا معاتبته لسيف الدولة وتهديده من طرف خفى بلغ الغاية القصوى فى البراعة واللباقة بأنه سيتركه . فهو يشتد ويلين ، ويؤلم ويأسو . تأمل كيف يتدسس إلى نفس ممدوحه على هذا النحو العجيب من التودد :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كلَّ شيء بعدكم عدمُ

ليعقبه بهذا العتاب الذى لا يخلو من شدة :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركمو من أمرنا أَمَمُ !

(ولاحظ اشارته إلى نفسه فى الحالتين بضمير الجمع ، مسويا فى هذا بين نفسه وبين سيف الدولة) . وبعد ذلك يعود فيلين متوددا :

إن كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمو ألم

ومع هذا لا يدع الفرصة تمر دون أن يخز ممدوحه وخزة ، خفيفة أول الأمر :

وبيننا ، لو رعيتم ذاك ، معرفة إن المعارف فى أهل النُّهَى ذِمَمُ

ثم شديدة بعد ذلك

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ! أنا الثريا ، وذان الشَّيْبُ والهَرَمُ

ليعود فيلين ويتمنى :

ليت الغمام الذى عندى صواعقه يزيلهن إلى من عنده الدِّيَمُ

ثم يلوح بالتهديد بأنه إن لم يتغير موقف سيف الدولة منه فسوف يجد نفسه مضطرا إلى التحول عنه :

أرى النوى يقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوخَّادةُ الرُّسُمُ
لئن تركن ضُمَيْرًا عن ميامننا لَيَحْدُثَنَّ لمن ودعتُهم ندم
إذا ترحَّلْتَ عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو

فتأمل كيف يحذّر ويلقى المسؤولية على عنق الأمير فى ثقة بالنفس وإدلال بالصداقة التي كانت تربطه به بلغا الغاية القصوى . وتأمل البيت الأخير وما فيه من لفتة ذهنية ونفسية لا تخطر على هذا النحو ولا تسكن هذه الصياغة إلا فى خيال شاعر عبقرى !

وتمعن بعد ذلك في البيت التالى الذى يريد أن يقول فيه : « إنك أيها الأمير ، إذا لم تغير موقفك منى وتَعُدْ إلى سالف ودادك وصداقتك معى ، فما الذى يا ترى يغرينى بالبقاء فى بلادك ؟ إنها حينئذ لشر البلاد » . ترى من يقدر على هذا الكلام غير المتنبى وأمثاله من ذوى النفوس الكبيرة ؟ :

شر البلاد بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الانسان ما يَصِمُ

ثم يكر المتنبى مرة أخرى على منافسيه الذين يشون به عند الأمير فيتهكم بهم وبما ينظمون من شعر (ولابد هنا من أن نذكر أن أبا فراس الحمدانى ، الفارس النبيل والشاعر الملهم ، كان أحد هؤلاء الخصوم . على أن ذلك ينبغى ألا يكون سببا فى نيلنا من المتنبى أو من خصمه ، فليس الكمال من طبيعة النفس البشرية) :

بأى لفظ تقول الشعر زِعْنفَةٌ تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ ؟

وفى نهاية القصيدة يعود المتنبى من حيث ابتدأ فيعاتب ويشكو ويتودد . مضيفا بذلك النغمة الأخيرة فى فخره بأدبه وما أُلْهِمه من حكمة :

هذا عتابك إلا أنه مِقَةٌ قد ضُمّن الدُرَّ إلا أنه كَلِمُ

فمعاتبة رجل كسيف الدولة هذا النحو من العتاب هو من الشعر العالى (وأكاد أن أقول : المعجز) . فانظر كيف رق المتنبى واشتد ، وتجهم وتبسم ، وهدد وتودد ، كل ذلك وهو يلتفت من حين إلى آخر ناحية أعدائه يكر عليهم من القول بما هو أنكى وأشد وقعا من عضب السيوف ، وكل ذلك فى أثواب من التعريض والتلويح ساحرة باهرة .

ومما يلاحظ على أسلوب هذه القصيدة ، بل على كل قصائد المتنبى بعامة ويضفى عليها قوة على قوة ، فحولة الصياغة وعنف التعبير . تأمل مثلا كيف يعبر عن ألمه من فتور سيف الدولة نحوه :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ ومَنْ بجسمى وحالى عنده سَقَمُ
مالى أكتّم حبا قد برى جسدى وتدَّعى حبَّ سيف الدولة الأُمَمُ ؟

فقد توجع متشكيا مما يتلظى فى قلبه من نيران ومما صار إليه حاله جميعه من سقم قد برى جسمه كما تبرى الموسى سن القلم . ولا تتوهمن أن هذا نفاق ، فقد ظهر مما استعرضناه من أبيات القصيدة بما لا يدع مجالا للارتياب أن نفسية المتنبى هى أبعد ما تكون من النفاق ، وبخاصة مع سيف الدولة ، إذ لم تكن العلاقة بينهما هى علاقة المولى بالتابع ، بل علاقة أمير فى ميدان السياسة والحكم بأمير فى حقل الشعر والحكمة . وفضلا عن ذلك أحب أن تتنبه لما أجراه من مقارنة بين حال قلبه وحال قلب ممدوحه ، فإذا كان قلبه يتلظى من الألم فقد وصف سيف الدولة (وإن لم يسمه ، مكتفيا بالتلميح الذى لا يمكن أن يخطئه أحد) بأن « قلبه شَبِم » ، أى بارد . فهل هذا ، مهما يُقَلْ فى توجيهه ، كلام يصدر عن منافق ؟

ومن عنيف تعبيره الصورة التى وردت فى نهاية البيت التالى :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرتُ إليه والسيوف دَمُ

فإن قوله : « والسيوف دم » قد نقل المعنى من كون السيوف ملطخة بالدماء ، وهو معنى عادى جدا ، إلى كونها هى نفسها قد أصبحت دما من كثرة ما أراقت من دماءٍ خضبتها وغطتها إلى الحد الذى لا يستطيع أحد معه أن يراها ويتعرف عليها .

ومثل هذه الصورة عنفا وجمالا الصورة الأخرى التى يقول فيها عن حصانه :

رجلاه في الركض رجل ، واليدان يد ... إلخ .

فلقد بلغ من سرعة هذا الحصان الكريم أن أصبحت رجلاه ويداه كأنها يد واحدة ورجل واحدة ، فهو بهذا يختصر إلى النصف الوقتَ الذى ينفقه أى حصان آخر بالغا ما بلغت مقدرته على العدو .

وانظر كذلك إلى افتخاره بنفسه فى عبارة تكاد أن تتفجر من شدة ما تحمل من معان ومشاعر :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ! أنا الثريا وذان الشَّيْبُ والهَرَمُ

فهو ، أولا ، يتحدث عن نفسه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، بضمير الجمع ، واضعا نفسه مع ممدوحه على قدم المساواة تماما . وهو ، ثانيا ، يتحدى سيف الدولة أن يذكر له ولو عيبا واحدا (أى عيب) ، وما أكثر ما حاول ذلك ، ولكنه عَجَز ! وهو ، ثالثا ، يلوم الأمير على موقفه منه (وإن صاغ ذلك فى عبارة ملفوفة) ، ويذكر له أن ذلك مما يبغضه الله ولا يرضاه الخلق الكريم . وهو ، رابعا ، لا يكتفى بذلك ، بل يضع نفسه فى أعلى عليين . فكيف ، من ثمة ، يجد العيب أو النقص إلى شرفه سبيلا ؟ هل سمع أحد أن الثريا قد شابت وهرمت ؟ ولاحظ أنه قال : « ما أبعد العيب والنقصان مِنْ شرفى ! » ، ولم يقل « مِنْ خلقى » . فكلمة « الخلق » هى كلمة محايدة ، إذ من الخلق الطيب والرديءُ ، أما الشرف فلا يكون إلا خلقا كريما نبيلا

ويتصل بهذا العنف فى التعبير والفخامة فيه ما يكلل قصائد المتنبى

من حِكَم تأتى كل حكمة منها فى موضعها فتكسبه ويكسبها نارا وضراما ، وتقتحم به ويقتحم بها القلوب اقتحاما . وهذه بعض أمثلة مما ورد من هذه الدرر فى القصيدة التى بين أيدينا وشاع على ألسنة الكاتبين والمتكلمين : « فيك الخصام وأنت الخصم والحكم ! » ، و « لا تحسب الشحم فيمن شحمه ورم » ، و :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

و :

إن كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمو ألم

... إلخ ، إلخ .

وإذا كان بعض خصومه ، على ما يذكر لنا تاريخ الأدب العربى ، قد انتقد بعض هذه الحكم ورمى الشاعر بأنه سرقها من هذا الشاعر أو ذاك ومسخها ، فإن أبسط رد على هذا اللون من الانتقاد ، لو صح ، هو أن أحدا لا يحفظ إلا أبيات المتنبى ، مما يدل على أن هذه الحِكَم لم تكتسب قيمتها وحلاوتها فى الآذان وحسن موقعها فى القلوب إلا على يد المتنبى الصناع . ومثالان اثنان لا غير خير كفيل بتبيان ما أقول :

قال معقل العجلى :

إذا لم أميز بين نور وظلمة بعينىّ فالعينان زور وباطل

وقال المتنبى :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظُّلَمُ ؟

وقال ابن الرومى :

إذا مـــا الفجائـع أكسبننـــى رضـاك فمـا الدهـر بالفاجـعِ

وقال المتنبى :

إن كان سركمو ما قال حاسدنا فمـا لجـرح إذا أرضاكمـو ألمُ

كذلك فإنه لو صح أنه اقتبس هذه الحكم من كتب الفلاسفة فالعبرة بجمـال الصياغة وقوة التعبير التى يخلعها الشاعر على شعره من حرارة قلبـه .

ويتصل بعنف التعبير كثرة المدّات فى هـذه القصيـدة ، ممـا يجعل إيقاع الكلام فخما رنانا يناسب الموضوع والجو الشعورى . وذلك إلى جانب الميم الممدودة التى ينتهى بها كل بيت ، وكأنها عصف الريح .

كلمة أخيرة أحب أن أقولها فى هذه القصيدة العصماء فإنها متماسكة الأبيات كأنها قطعة واحدة من الصخر لا تستطيع أن تفتتها ، أو حتى تكسرها . فأنت تأخذها إذا أخذتها كتلة واحدة أو تدعها . لقد تصرف المتنبى ، كما رأينا فى تحليلنا للقصيدة ، فى معاتبة سيف الدولة فى فنون القول بما سحر وبهر ، ولكنه لم يخرج قط عن خطة سيره . وكل ذلك فى اعتزاز بالنفس ، وإدلال بالمكانة ، وافتخار رجولى كريم .

من نسيب الشريف الرضى

يا ظبية البان تَرْعَى فى خمائله، لِيَهْنِك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يُرْويك الا مدمعى الباكى
هبَّتْ لنا من رياح الغور رائحةٌ بعد الرقاد عرفناها بريّاك
ثم انثنينا إذا ما هزّنا طرب على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب ، وراميه بذى سَلَم ، مَنْ بالعراق. لقد أبْعَدْتِ مرماك !
حكت لحاظُك ما فى الريم من مُلَحٍ يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكى
كأن طَرَفَك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنتِ النعيمُ لقلبى والعذابُ له فما أمَرّك فى قلبى وأحلاك !
عندى رسائل شوق لستُ أذكرها لولا الرقيب لقد بلّغْتُها فاك

هذه أبيات فى الغزل قلما يجد الانسان مثلها عذوبة ورقة وإثارة للشجن الهادىء . وانى لأعترف أن البحث عن سر جمالها قد حيرنى طويلا . ولا أدرى أقد أصبته حين أتصور أنه ينبع ، فيما ينبع منه ، من أنها (وإن كان ذلك على نحو غير مباشر ، ويُسْتَشَفُّ استشفافا لا أكثر) تصور مشاعر متضاربة يحسها الشاعر وتُجَشّمه غير قليل من العناء . فهو مثلا يهنىء حبيبته على أن قلبه قد أصبح منذ اليوم مرعى لها ، هى الظبية الرشيقة ، ترتع فيه وتطعم وتَرْوَى آمنة مطمئنة من أخطار الدهر ووحوشه ، ولكن علام يهنئها ويغبطها ؟ على أنها احتلت قلبه ، واستولت على حياته كلها ، ثم هى لا تنوّله من أمانيه شيئا . فأى غبْط هذا ؟ ألا يشبه هذا حال الطعين الذى توجب عليه الظروف أن يبتسم رغم الألم ؟

وخذ أيضا قوله : « لقد أبْعدْتِ مرماك » فى البيت التالى :

سهم أصاب ، وراميه بذى سَلَم ، مَنْ بالعراق . لقد أبعدت مرماك !

ألا ترى كيف يبدى الشاعر إعجابه بقوة رميتها وبراعتها فى الإصابة ، حتى لتستطيع ، وهى الفتاة الناعمة ، أن تقذفه بهذا السهم المصمى ، وبينه وبينها ما بين الحجاز والعراق ؟ فيا له من مُعْجَب يهلل للطعنة التى تلقاها !

وهذا التضارب فى المشاعر يصل إلى ذروته فى البيت التالى :

أنتِ النعيم لقلبى والعذاب له فما أمرك فى قلبى وأحلاك !

فانظر كيف يلخص الشاعر فى مهارة فائقة وبساطة ساحرة مشاعرَ كل محب محروم ، فهو من جمال محبوبته فى جنة ، وهو من صدودها فى جحيم ! وانظر كذلك كيف يصور مشاعر قلبه وكأنها إحساسات لسانه : « فما أمرك فى قلبى وأحلاك ! »

فهذا سر من أسرار جمال هذه القصيدة تنضاف إليه المناظر الطبيعية الحالمة التى تصورها الأبيات فى بعض المواضع ، وتوحى بها فى بعض المواضع الأخرى . إليك مثلا قوله :

يا ظبية البان ترعى فى خمائله لِيَهْنِكِ اليومَ أن القلب مرعاكِ

الماء عندك مبذول لشاربه وليس يُرْويك إلا مدمعى الباكى

الذى يصور فى إيجاز ورشاقة غابة من البان تسكنها ظبية وحيدة تتمتع هناك بالظل الوارف والبال الناعم والماء الثر النمير ، ولكنها ظبية ملول ، إذ لا يحلو لها شىء من هذه المتع ، بل تهجر كل هذا النعيم وتأتى لترعى فى قلب الشاعر . والماء يجرى فى الغدران عذبا صافيا ، ولكنها

لا تروى إلا بمدمعه . فيا له من ملل قاس !

وإليك أيضا هذا البيت :

هبَّتْ لنا من رياح الغور رائحة   بعد الرقاد عرفناها برِيَّاك

الذى يوحى بسكون الليل وسجوّه ، وقد نامت الجفون وداعبتها أطياف الأحلام ، وهب النسيم رقيقا محملا بريّا الأحبة على تنائى الديار ، وبعد المزار ، ولكنه الحب يطوى ما لا يُطْوَى من المسافات ، فإذا بهؤلاء النائمين يتقلبون على فراش السعادة ، وقد فغم أنوفهم هذا الطيب العجيب .

نعم ، انه الحب يطوى ما لا يُطْوَى من المسافات . قف أمام هذا البيبت وتأمل ما فيه من جمال :

سهم أصاب ، وراميه بذى سلم ،   منْ بالعراق ، لقد أبْعدْت مرماك ؟

فأى سهم هذا الذى ينطلق من الحجاز فيصيب مَنْ بالعراق ؟ وفى كم من الزمن يا ترى قطع هذا السهم العجيب تلك المسافة الهائلة ؟ وكيف يا ترى أصاب رميته لم يخطئها على بعد المكان والزمان ؟ يا لها من رحلة تلك التى حلق فيها هذا السهم العجيب فوق كثبان الرمل فى مفاوز الصحراء ، وفوق الجداول والحقول والمدن والقرى ، وفى وهج الشمس وشعاع القمر الناحل ! وتمعن فى دهشة الشاعر وألمه اللذين أسكنهما هذا التعبير الرفاف : « لقد أبْعَدْت مرماكِ ! » . إنه الحب ، الذى ينبع من أعماق نفوسنا ، ولكننا فى ألمنا ولوعة قلوبنا نظنه قد غزاها من خارجها .

السر الثالث من أسرار جمال هذه الأبيات يكمن فى صياغتها الأسلوبية : فمثلا ما أكثر ما شبّه الشعراء العرب القدامى والمحدثون المرأة الجميلة بالظبية ، وقوامها اللدن الرشيق بغصن البان ! فإذا جاء الشريف الرضى وسمى حبيبته بـ « ظبية البان » فليس فى ذلك ، فيما أظن ، شىء غير عادى . ولكنه حين يناديها بقوله : « يا ظبية البان تَرْعَى فى خمائله » ، فإن عبارة « ترعى فى خمائله » تضيف إلى هذا العادى شيئا غير عادى ، إذ إن هذه العبارة تريد أن تقول شيئا (وإن قالته على نحو غير مباشر ، بأسلوب الكناية) هو « أنكِ منعمة حيث أنت فى ظل وريف وعيش خصيب وأمان من العاديات ، فكل هذه الخمائل ملك يديك ومتعة لناظريك ، ولكن ... ولكنك تتركين هذا كله ، وتأبين أن ترتعى إلا فى قلبى ، فهنيئا لك تعذيبك لى ! » . وانظر كذلك كيف لم يقل مثلا : « قلبى مرعاك » (وكان يستطيع أن يتصرف فى صياغة بقية البيت ، بحيث لا ينكسر الوزن) ، ولكنه قال : « القلب مرعاك » ، مستخدما (أل) العهدية . إنها تفهم جيدا أى قلب يقصد . أليست قد اتخذته سكنا ومرتعا ؟ فلم إذن التصريح والابتذال ؟

كذلك فانظر إلى قوله فى البيت التالى : « الماء عندك مبذول لشاربه » ، وكيف لم يقل : « مبذول لك » مثلا ، بل قال « مبذول لشاربه » ، وكأنه يريد أن يشكو لها تعنتها قائلا : « إن هذا الماء متاح لكل شارب ، فهو ماء غزير ، وليس لك عذر فى ألا تجدى ريّك إلا فى

دموعى الهامية ! » ، ولكنه لم يشأ أن يقول لها هذا بصريح العبارة ، فلجأ إلى هذا الأسلوب من التعريض بالشكوى بدلا من الصراحة التى قد تخدش ، مجرد خدش ، إحساسها الرهيف . فيا لتلك المحبوبة من متعنتة رهيفة الإحساس ! ولكنْ مرة أخرى هو الحب يجعل المحبين يرضون بالظلم ويستعذبونه ، أو (إن لم يستعذبوه) يكتفون بالجمجمة بالشكوى !

كذلك توقف قليلا أمام تركيب الكلام فى البيت التالى :

سهم أصاب ، وراميه بذى سلَم مَنْ بالعراق . لقد أبْعَدْت مرماك !

إن الشاعر لم يقل مثلا : « لقد أصابنى سهمك ، رغم أنك بذى سلم ، وأنا بالعراق ، فهذا كلام يخلو من نفحة الشعر ، ولكنه تحدث عن الفاجعة بصيغة التنكير والإبهام : « سهم أصاب » ، ثم ثنى وألقى بعض الضوء عليها : « وراميه بذى سلم مَنْ بالعراق » ، ذاكرا بذلك رامى السهم ومن أصيب به ، ولكنه لم يحدد الأسماء ، فهو لا يحتاج إلى تحديد . وهل نحتاج نحن إلى تحديد ؟ ولكن التفت مع ذلك إلى قوله : « راميه » وما فى صيغة التذكير هنا من تدليل واستملاح ، وكذلك إلى استعمال الاسم الموصول « مَنْ » بدل « الذى » ، فإن الأولى أكثر إبهاما من الثانية . فمن يسمع عبارة « مَنْ بالعراق » قد يظن للوهلة الأولى أنها قد أصابت بسهمها كل أهل العراق ، فكأن الشاعر يريد أن يقول لها : « إن ألمى لشديد قاس ، وكأنه آلام أهل العراق جميعا » . ثم تأتى

العبارة الأخيرة التى ذيل بها بيته ، فكأنها النغمة الأخيرة التى يكثف فيها الموسيقىّ ما فى لحنه من شَجًى (انظر ما قيل فيها فى أول التعليق) .

أما فى البيت التالى :

حَكَتْ لحاظُك ما فى الريم من مُلَحٍ   يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكى

فإن الشاعر قد أدخل على أساس التشبيه المألوف ، تشبيه المرأة الجميلة الرشيقة بالظبى ، بعض التحويرات مما جعله يبدو وكأنه تشبيه جديد لا عهد لنا به من قبل ، فهو لم يقل مثلا : « حكت عيناك عينى الريم » ، ولكنه بدلا من « عيناك » (وهى مثنى) قال : « لحاظك » (بصيغة الجمع) ، وبدلا من « عينى الريم » قال : « ما فى الريم من مُلَح » بتقديم الريم (مما جعل العبارة تخرج عن المألوف العادى) وإيراد كلمة « ملح » (جمع « مُلْحة » ، وهى كل شىء لطيف مستحسن) ، التى تستغرق ألوان الحسن المختلفة فى الظبى عينا وجيدا ولفتة ورشاقة حركة ، إلخ . ولا يفوتنك قوله : « ما فى الريم من ملح » بدلا من « ما فى عينى الريم من ملح » ، وهو ما يسمى فى البلاغة مجازا مرسلا . ولكن المهم هو أن نعرف ما الذى أفاده العدول هنا عن الحقيقة إلى المجاز . ولا أظن أن من الصعب أن نلاحظ أن هذا العدول قد جعل التشبيه خاصا وعاما فى ذات الوقت ، أى أنها تشبه الريم فى جمال عينه ، وفى كل ما فيه من ملح . وقد تم هذا بدون أن يضيف إلى

العبارة شيئا ، بل بإسقاط بعض ألفاظها (فبدلا من « عينى الريم » قال : « الريم » فقط) .

ثم هناك البيت قبل الأخير :

أنتِ النعيم لقلبى والعذاب له   فما أمرك فى قلبى وأحلاك !

وفيه تجد أن الشطرة الثانية هى مقلوب الشطرة الأولى من جهة المعنى ، فإن المرارة تقابل العذاب ، كما تقابل الحلاوة النعيم . وترتيب الكلام على هذا النحو جعل البيت يبدو وكأنه المعنى وصورته فى المرآة ، حيث يبدو اليمين شمالا والشمال يمينا ، مما يحدث هزة طرب لدى السامع ، إذ إن الذهن كان يتوقع أن يأتى الشاعر بالحلاوة قبل المرارة ، كما ذكر النعيم قبل العذاب ، ولكنه بما فعل قد خرج عن المعهود ، فأيقظ إحساسنا وأطربنا .

يبقى بعد ذلك القافية . وأرجو ألا نُتَّهم بالتكلف إذا رأينا فى الألف الممدودة تليها كاف مكسورة صوتا كصوت من يزفر توجعا ، وهو ما يناسب جو هذه الأبيات الرقيقة الشجية .

ومع كل ما سبق فإنه يؤسفنى أن أرى فى آخر هذه الأبيات الجميلة هذا البيت :

عندى رسائل شوق لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلَّغتُها فاك

الذى يهبط بنا من السماوات العلا إلى أرض الرغبات الجسدية . إننا لسنا ممن يعتقدون بأن الحب ينبغى أن يتطهر عن مثل هذه الرغبات ، فإنها

جزء لا يتجزأ من صميم كيانه (كل ما فى الأمر هو : أتتحقق فى الحلال أم فى الحرام ؟) ، إلا أن مدار الاعتراض هنا هو فيما يحسه القارىء أو السامع لهذه القصيدة من تنافر بين الشجى المرفرف فى كل الأبيات وبين الرغبة فى التقبيل التى نبتت فجأة فى سياق لا يلائمها ولا تلائمه . وفضلا عن ذلك فإن الشاعر قد عبر عن رغبته هذه بطريقة شبه عابثة (تذكرنا بالممثل الفكاهى حين يقول للخادمة مثلا « عاوز أوشوشك فى بقك ! ») . ويزيد هذا العيب سوءا أنه قد أتى فى نهاية القصيدة . ولو كان أتى فى درجها لجاءت بقية الأبيات فعفَت على بعض ما فيه من سوء .

أبو العلاء المعرى يرثى صديقه أبا حمزة الفقيه

غَيْرُ مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى نَوْحُ باكٍ ولا ترنم شادِ
وشبيهٌ صوت النَّعِىّ إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل نادِ
أبَكَتْ تلكم الحمامةُ أم غنـ ـت على فرع غصنها الميّاد ؟
صاح ، هذى قبورنا تملأ الرحـ ـب ، فأين القبور من عهد عاد ؟
خفّف الوطءَ ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا ، وإن قَدُمَ الـ ـعهد ، هوانُ الآباء والأجداد
سرْ إن اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدلج فى سواد
تعبٌ كلها الحياة ، فما أعْـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد
إنّ حزنًا فى ساعة الموت أضـ ـعاف سرور فى ساعة الميلاد
خُلق الناس للبقاء فضلت أمّةٌ يحسبونهم للنَّفاد
إنما يُنْقَلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
أبنات الهديل ، أسعدْنَ أو عدْ ن قليلَ العزاء بالإسعاد
إيه لله دَرُّكُنّ ! فأنتُـ ـن اللواتى تُحْسِنّ حفظ الوداد
ما نسيتن هالكا فى الأوان الـ ـخال أودى من قبل هُلْك أياد
بيد أنى لا أرتضى ما فعلتُـ ـنّ وأطواقكن فى الأجياد
فتسلّبْنَ واستعرن جميعا من قميص الدجى ثياب حداد
ثم غردن فى المآتم واندبـ ـن بشجو مع الغوانى الخراد

قصد الدهر من أبى حمزة الأ … وّاب مَوْلًى حِجًا وخدن اجتهاد

وفقيها أفكاره شِدْنَ للنعـ … ـمان ما لم يَشِدْه شِعْرُ زياد

وخطيبا لو قام بين وحوش … علّم الضاريات بِرَّ النقاد

راويا للحديث لم يُحْوِج المعـ … ـروف من صدقه إلى الإسناد

أنفَقَ العمر ناسكا يطلب العلـ … ـم بكشف عن أصله وانتقاد

ذا بنان لا تلمس الذهب الأحـ … ـمر زهدا فى العسجد المستفاد

ودّعا أيها الحَفِيّان ذاك الشـ … ـخص . إن الوداع أيسر زاد

واغسلاه بالدمع إن كان طهرا … وادفناه بين الحشا والفؤاد

واحبواه الأكفان من ورق المصـ … ـحف كِبْرًا عن أنْفَس الأبراد

واتلوا النعش بالقراءة والتسـ … ـبيح لا بالنحيب والتعداد

أسفٌ غير نافع ، واجتهادٌ … لا يؤدى إلى غَناء اجتهاد

طالما أخرج الحزينَ جَوَى الحز … ن إلى غير لائق بالسداد

كيف أصبحت فى محلّك بعدى … يا جديرا منى بحسن افتقاد ؟

قد أقر الطبيب عنك بعجز … وتقضّى تَرَدُّدُ العُوَّاد

وانتهى اليأس منك واستشعر الوجـ … ـد بأن لا مَعَاد حتى المعاد

كنتَ خِلَّ الصبا ، فلما أراد الـ … ـبين وافقت رأيه فى المراد

ورأيتَ الوفاء للصاحب الأ … ول من شيمة الكريم الجواد

وخلعت الشباب غضًّا ، فيا ليـ … ـتك أبليته مع الأنداد

فاذهبا خير ذاهبين حقيقـ … ـين بسُقْيَا روائح وغوادى

ومَراثٍ لو أنهن دموع … لَمحَوْنَ السطور فى الإنشاد

زُحَلٌ أشرف الكواكب دارا … من لقاء الرَّدَى على ميعاد

واللبيب اللبيب من ليس يغتـ … ـرّ بِكَونٍ مصيرُه للفساد

هذه القصيدة تدور حول موضوع واحد ، هو رثاء أبى حمزة الفقيه

الحنفى ، الذى كان من الواضح أن أبا العلاء المعرى يجل أخلاقه وزهده وانصرافه إلى العلم عن اللهاث خلف لذائذ الحياة الدنيا ، وهى المناقب التى كان أبو العلاء المعرى نفسه يتحلى بها ، ويراها هى الأجدر بأن يستمسك بها الناس جميعا ، وبخاصة أن الدنيا مصيرها إلى انتهاء ، وألا أحد ولا شىء مخلّد على وجه الدهر . ومن الواضح كذلك أن جوا نفسيا واحدا ينتظم القصيدة كلها من أولها إلى آخرها . هو جو الحسرة على أحوال الدنيا التى يتسرب كل شىء فيها من عُمْر وأصدقاء وهناءة بال من بين أيدينا ، وعلى صديقه الذى قضى ولما يكن قد جاوز سن الشباب ، فخلّف الشاعر ليحس بمزيد من الوحشة والأسى

ومع وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى ، فإن القصيدة لا تخلو من بعض التناقضات والعيوب الأخرى التى تنال من جمالها ، وتضعف من قوة تأثيرها ، كما سنرى بعد . لقد بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة فلسفية تفكر فيها فى أحوال الدنيا وانتهى إلى أن كل شىء فيها هالك ، وليس فيها ما يغرى بالحرص عليها ، ومن ثمة فلا فرق فى نظره بين متعها وأحزانها . وما دام الحال كذلك فعلى كل إنسان أن يتحلى بالتواضع ، وأن يكف عن الاختيال فوق أديم الأرض . ويخرج أبو العلاء من هذه المقدمة إلى مخاطبة الحمائم ، اللائى لا يكففن عن الهديل بكاء على فرخ الحمام الذى تقول الحكايات إن طيرا جارحا فى قديم الأزمان قد انقضّ عليه وافترسه ، فيطلب منهن أن يشاركن فى النوح على أبى حمزة

الفقيه صاحب العقل الذكى ، والخطيب الألمعى ، وراوى الحديث العدل ... إلخ . ويخرج من ذلك مرة أخرى إلى مخاطبة صديقين لأبى حمزة فيلتمس منهما أن يغسلاه بالدمع الطاهر ، وأن يكفناه فى ورق المصحف ، ويحذرهما من الانقياد وراء البكاء وتعداد المناقب ، فهما لا يجديان شيئا . وهنا يتجه بالخطاب إلى أبى حمزة متعجبا من صروف الدهر وكيف أنه ما كاد يرتدى برد الشباب حتى خلعه بل خلع برد الحياة ذاتها . وفى آخر القصيدة يعود فيعزف نغمة أن كل شىء فى الدنيا هالك ، وأن العاقل من لا يغتر بشىء فيها .

فأنت ترى من هذا التحليل السريع كيف أن القصيدة متماسكة الأفكار والمشاعر (على أن يكون مفهوما أنى قد تعمدت فى هذا التحليل أن أقفز فوق ما فيها من مآخذ سأتناولها فيما بعد) .

والحقيقة أن أجمل أجزاء القصيدة هو المقدمة الفلسفية بما فيها من عمق وجلال وسخرية خافتة بالمغرورين المختالين الذين ينسون أنهم مجرد مخلوقات عابرة فانية ، فيضرب الواحد منهم وجه الأرض بقدميه ، ظنا منه أنه يستطيع أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا .

ويُضَاف إلى هذا الجزء الأبياتُ التى يلتمس فيها الشاعر ممن يحبان أبا حمزة أن يغسلاه بالدمع الطاهر ، وأن يكفناه بأوراق المصحف ... إلخ ، فهذه الأبيات تغزو الفؤاد غزوا .

أما بقية القصيدة فمعظمها لا يبلغ من الجودة شأوا بعيدا ، وبعضها

بتقصر عن حد الجودة تقصيرا

أما فى المقدمة الفلسفية فإن الشاعر يتناول ثلاث أفكار فرعية هى أن كل شىء فى الدنيا يستوى مع كل شىء آخر ، وألا أحد يبقى على الحدثان (حتى إنه ليرى الأرض كلها قبرا كبيرا ينبغى أن نحاذر المشى فوقه ما أمكن ، احتراما لرفات الآباء والأجداد) ، وأن الحياة هى التعب والشقاء بعينه ، فلا معنى لتعلق الناس بها .

وهو فى تناوله للفكرة الأولى يخصص لها ثلاثة أبيات مستعرضا فى كل بيت منها مظاهر استواء كل شىء مع كل شىء ، فهو لا يرى فرقا بين نوح الباكى وغناء المترنم . أليست كلها أصواتا تخرج من فم الإنسان ، وهو مخلوق عابر فكل ما فيه وكل ما يفعله من ثم عابر فان ؟ وهو لا يجد اختلافا بين صوت من يأتينا بخبر وفاة عزيز وصوت من يبشرنا بميلاد طفل جديد ، فإذا كان ذلك قد ودع الدنيا فإن هذا سيقفوه عما قليل . كما أنه لا يستطيع أن يحدد مِنْ هديل الحمامة التى يتمايل بها غصنها على الشجرة القريبة أهى تبكى أم تغنى ، فقد استوى الغناء والبكاء فى أذنيه ، لأنه لم يعد يبالى بمظاهر الحياة ، إذ تعمق فيها حتى بلغ حقيقتها فإذا هى سراب خداع . وهذا البيت الأخير وما فيه من تساؤل ساخر يوحى بفقدان شهية الحياة هو أقوى الأبيات الثلاثة :

أبَكَتْ تلكم الحمامة أم غـ ـنت على فرع غصنها المیادِ ؟

وبعد ذلك نراه يلح على فكرة الموت ، فهذى القبور تطالعنا فى كل

مكان ، فإذا عرفنا أن أمما وأجيالا لا يحصيها إلا خالقها منذ أن بدأت الحياة على وجه الأرض قد أتت إلى الدنيا ومضت ، فأين يا ترى قبورهم ؟ وأين عظام موتاها ورفاتهم ؟ إن النتيجة المنطقية هى أن الأرض التى نمشى عليها الآن قد كانت مدفنا لجيل قبلنا ، كما أن قبورنا سوف تتحول مع الأيام إلى أرض يدب فيها من سيأتون بعدنا . ومعنى هذا أن الأرض كلها قبر كبير ، وأن التراب الذى نطؤه بأقدامنا وأحذيتنا هو فى الحقيقة رفات الذاهبين فانظر كيف يظل المعرى يتغلغل فى فكرته ، واصلا منها إلى الحقيقة المرة . ساخرا ممن تستغرقهم اللحظة الحاضرة فيعمون عن هذه الحقيقة ويخيل إليهم غرورهم أنهم شىء ، وما هم بشىء ، فتراهم يمشون مختالين ، ناسين أنهم سيكونون عما قريب ترابا تدوسه الأقدام المختالة كما يفعلون الآن برفات أسلافهم ، ومتهكما أيضا بمصير البشر ، إذ يقضون حياتهم فى نزاع وخصام ثم قد يجمع المتنازعين فى النهاية نَفْسُ القبر الذى يضحك فى هذه الحالة منهم ومن عنائهم فى غير طائل ! :

خفِّف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قَدُمَ العهـ ـدُ هوان الآباء والأجداد
سِرْ إن اسْطعْتَ فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رُبَّ لحْدٍ قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

وكأن أبا العلاء يرى أن سامعه ربما لا يزال غير مصدق هذه الحقيقة ، فنراه يلفته إلى مظاهر الطبيعة ويطلب منه أن يسأل الشمس

والقمر عن أجيال البشر التى أنارا لها ليلا ونهارا ، ثم يخلص إلى وصف مشاعره تجاه الحياة وتكالب الناس على البقاء فيها ، متعجبا من هذا التكالب على حياة كلها تعب وشقاء وسهاد ، ومن الخوف من الموت والنفور منه مع أنه فى حقيقته رقدة يستريح الإنسان فيها من تلك المتاعب وهذا السهاد الطويل .

ولكن لماذا يؤثر فينا هذا الكلام ؟ يؤثر فينا لأنه فى الحقيقة صدى لما نشعر به فى أعماقنا ، ولكن على نحو غير واضح . ثم إنه يضع أيدينا على حقيقة من حقائق الحياة التى كثيرا ما ننساها فى غمرة اللهاث وراء متع الدنيا . إن للحياة إغراءها الذى لا يُقَاوَم ، ولكنه يكلفنا كثيرا من الإرهاق والآلام من جراء النشاط المحموم الذى يقتضيناه هذا الإغراء . فإذا جاء إنسان وأصاخ بنا أن نقف لحظة ونفكر فى نتيجة هذا السعى المتواصل المحموم وبصّرنا بأن هذا السعى منته إلى غير طائل ، وكان هذا الإنسان صاحب نصيب كبير من الحكمة وعمق النظرة ، فلا شك أن كلامه سيوقظ فينا ما كنا نشعر به فى غير وضوح من إرهاق وألم ، وسيوقظ فينا أيضا رغبتنا فى أن نحصل على الراحة من كل هذا العناء ، ومن ثم نتجاوب مع ما يقول تجاوبا كبيرا . ذلك أنه باختصار يقول ما كان ينبغى أن نقوله ، أو ما كنا نود أن نقوله .

ومما يجعل لهذا الكلام زيادة قبول فى نفوسنا ما فيه من مقدرة فنية . وقد رأيتَ ما فى تساؤله : « أبكت تلك الحمامة أم غنت ...

إلخ ؟ » من تهكم وسخرية نستطيع أن نراهما أيضا فى هذه العبارة الموجزة : « خفف الوط ! » . إنه التهكم بالغرور المختال الجاهل ، الذي يحاول الشاعر أن يصطنع فى مواجهته أسلوب التواضع حين يقول : « ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد ! » ، فهو لا يريد أن يقطع بالحكم ، ولكنه يتظاهر بعدم التأكد رغبة منه فى تعليم المختال الجاهل فضيلة التواضع . ونفس الشىء تلمسه فى قوله : « العباد » (التى تساوى قولنا بالعامية « الناس الغلابة ») :

سرْ إن اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد

بدلا من « الناس » مثلا أو « الخلق » ، وهما لفظتان ليس فيهما هذا الوخز الذى يحتاجه ذوو الاحساس الغليظ الذين لا يملأ عيونَهم أحد ، كى يفيقوا من تعاليهم وإحساسهم الغبى المتضخم بأنفسهم .

ومع ذلك كله فان الشاعر فى هذا الجزء من القصيدة قد أقحم بيتين لا ينسجمان مع السياق ، وهما :

خلق الناس للبقاء فضلَّتْ أُمَّةٌ يحسبونهم للنفاد

إنما يُنْقَلون من دار أعما ل إلى دار شِقْوَةٍ أو رشاد

وخروجهما على السياق يمكن فى أن الفكرة التى تدور حولها الأبيات التى وردا فيها هى ألا شىء ولا أحد مخلد فى هذه الدنيا ، ومن ثم فعلى رغم أن هذين البيتين يعبران عن عقيدتنا نحن المؤمنين بالله واليوم الآخر فإنهما قد أُقْحِما فى غير موضعهما إقحاما ، علاوة على أن قوله بُعَيْد ذلك:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها ، والعيش مثل السهاد

يتناقض مع مضمون هذين البيتين ، إذ كيف يكون الموت ضجعة يستريح الجسم فيها من السهاد والألم ، والبيتان يؤكدان أن الانسان يترك الدنيا لينتقل إلى الجنة أو النار ؟ إن الموت اذن ليس نوما بل يقظة تامة ، وإذا ما قصر بالانسان عمله فهل ينتظره إلا النار وسهادها الذى يتضاءل بجنبه كل سهاد ؟

أما فى الجزء الثانى الذى يتجه بالخطاب فيه إلى الحمائم الهادلة فوق غصون الأشجار فإنه ما إن يبدأ هذه البداية الموفقة المؤثرة حين ينادى بنات الهديل ويطلب منهن تعزيته عن الآلام التى كان يحسها لفقد صديقه ، وحين يتعجب من وفائهن هذا التعجب الحلو الرقيق :

إيــه للــه دَرُّكُـنَّ ! فأنتـ ـن اللواتى تُحْسِنَّ حفظ الوداد

ما نسيتـنَّ هالكا فى الأوان الـ ـخالِ أودى من قبل هُلْك إياد

حتى نراه يأخذ على هذه الحمائم أنها تضع فى أجيادها أطواقا للزينة ، وأن الأحرى بها أن تخلع هذه الأطواق ليكون حدادها كاملا . وهى مؤاخذة تثير الابتسام ، فلسن هن اللاتى وضعنها فى أعناقهن ، لا ولا هن مستطيعات أن يخلعنها .

والشىء ذاته ينطبق على تلاعبه بالتورية فى البيت الثانى من الأبيات التى يرثى فيها صديقه ويشيد بمناقبه ، وهو :

وفقيهـا أفكـاره شِـدْنَ للنعـ ـمان ما لم يَشِدْه شِعْرُ زيادِ

إذ معنى البيت هو أن أبا حمزة قد شاد بأفكاره لأبى حنيفة النعمان ما لم

يستطع شعر النابغة أن يشيده للنعمان بن المنذر ، ولكن أبا العلاء اكتفى بإيراد لفظة « النعمان » مرة واحدة ، وكأن النعمان الذى شاد له أبو حمزة شهرةً علمية هو هو النعمان الذى شاد له زياد مجدا فى دنيا الشعر والأدب . فهذا تلاعب بالألفاظ لا يناسب تماما جو الحزن الذى يخيم على القصيدة كلها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الجزء من القصيدة إنما هو عبارة عن تقريرات عادية يعدد فيها مناقب صديقه المتوفًّى واحدة وراء الأخرى بأسلوب خال من رواء الفن عرفنا إلى أى مدى لم يوفق الشاعر فى هذه الأبيات .

ونصل الآن إلى هذه الأبيات الجميلة :

ودّعا أيها الحفيان ذاك الـ ـشخص . إن الوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع إن كان طهرا وادفناه بين الحشا والفؤاد
واحبُواه الأكفانَ من ورق المصـ ـحف كِبْرًا عن أنْفَس الأبراد
واتلوا النعش بالقراءة والتسـ ـبيح لا بالنحيب والتعداد

فالغموض الذى يحيط بهذين الشخصين اللذين يوجه إليهما الخطاب ، ولفظة « الحفيّان » بما تدل عليه من إعزاز وإكرام وود واهتمام ، وهذه الصور الحالمة المشعة وضاءة ونبلا والتى يقفو بعضها بعضا : « اغسلاه بالدمع إن كان طهرا » و « ادفناه بين الحشا والفؤاد » و « احبواه الأكفان من ورق المصحف » و « اتلوا النعش بالقراءة والتسبيح » ، كل هذا يدخل إلى القلب فيستولى عليه استيلاء .

وتبقى بعد ذلك الأبيات الأخيرة التى يخاطب فيها صديقه

الراحل ، متذكرا مرضه وعجز الطبيب عن أن يفعل له شيئا ، وداعيا له بالسقيا ومتفجعا على فقده ، والتى تنتهى بهذين البيتين :

زُحَلٌ أشرف الكواكب دارا ... من لقاء الرَّدَى على ميعاد
واللبيب اللبيب ليس يغترّ ... بكَوْنٍ مصيره للفساد

وهما أجمل هذه الأبيات ، وبخاصة الصورة التى رسم فيها مصير الكوكب « زحل » ، إذ جعله على ميعاد من لقاء الردى ، وذلك إلى جانب ما فى العبارة من تقديم وتأخير جعل المعنى لا يتضح إلا مع آخر كلمة فيها ، وكذلك تعبيره عن تفتت الكوكب واندثاره فى الهواء بـ « لقاء الردى » . وفضلا عن جمال الصورة وطرافة التركيب هناك التأكيد فى قوله : « واللبيب اللبيب » بما يوحى به من شدة حب الشاعر لبنى البشر ورغبته الطاغية فى أن ينصحهم ويرشدهم ويردهم عن مهاوى الاغترار بكونٍ مصيره ، كما يقول ، للفساد . ولاحظ أن تحذيره ينصب على « الكون » كله . أليس فاجعا أن يكون هذا الكون كله ، بسماواته وأرضه وفضائه وشموسه وأقماره وناسه وحيوانه ونباته وماضيه وحاضره ومستقبله على مدى الأجيال المتلاحقة التى لا يحصيها إلا بارئها ، إلى فساد ؟ والبيتان من ناحية أخرى يعودان بالقصيدة عودا على بدء ، فيضفيان عليها مزيد تماسك .

ولكن أحب أن أنبه إلى ما كنت أسلفت الإشارة إليه ، وهو ما فى القصيدة من تناقض . لقد رأينا جانبا منه فى نبوّ بعض الصور أو

التعبيرات عن سياقها ، ولكن هناك وجها آخر لهذا التناقض ، إذ بينما نرى الشاعر يلح على أنه لا فائدة من البكاء والنحيب على الموتى إذا به يطلب من بنات هديل أن يشاركن « الغواني الخرِاد » فى ندبهن صديقه المأسوف عليه . وبينما نجده يقول :

تَعَبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

نراه يعود فيتمنى لو أن هذا الصديق قد طال عمره ولم يقض نحبه فى غضارة الشباب :

وخلَعْتَ الشباب غضًّا ، فيا ليـ ـتك أبليته مع الأنداد

صحيح أن من الممكن الرد بأن هذا التناقض إنما تُسْأل عنه الطبيعة البشرية ، إذ كثيرا ما تقتنع عقولنا بشىء ، لكن قلوبنا لا تقتنع به ولا تستجيب للأحداث بمقتضاه ، إلا أن ما يؤخذ على الشاعر أنه أسرف فى الإلحاح على فكرة ألا جدوى من البكاء والحزن إسرافا سد عليه الطريق فيما بعد وقيّد حريته ، فلما عاد يتصرف كما يتصرف الناس العاديون ، فيندب الموتى ويعدد مناقبهم . ويتمنى لو كانوا بقوا على قيد الحياة ، أضحى موقفه حرجا .

وبعد ، فالقصيدة رغم ما فى بعض أجزائها من قوة وجمال لا ترقى إلى المصف الذى وضعها أحد النقاد فيه ، إذ يقول إنه « ربما كانت هذه المرثية خير مراثى العربية على الاطلاق » ، فقد رأينا كيف أنها لا تخلو من بعض العيوب الفادحة ، علاوة على أن بعض أجزائها فاتر يلمس

صفحة النفس فلا تهتز له . ومن الإجحاف أن نفضلها على قصيدة كتلك التى يرثى فيها مالك بن الريب نفسه ، أو تلك التى يتفجع فيها أبو ذؤيب الهُذَلى على أولاده ، أو ابن الرومى على ابنه الأوسط ، أو قصيدة العقاد فى « رثاء طفلة » (وهذا قليل من كثير) . ذلك أن قصيدة أبى العلاء تفتقر إلى ما فى هذه القصائد من ألم يصهر الفؤاد صهرا ، إذ إن الألم الذى تبعثه فى نفوسنا هو ألم مبعثه العقل والتفلسف ، وهو ألم عام يتعلق بمصير الكون كله بالدرجة الأولى .

الفهرس

د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م

له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها:

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
- المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي - دراسة تحليلية
- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدي وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصي
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية "العار"
- مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي
- نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ في رسالة "الرد على النصارى"
- محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره الإسلامي
- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود علي مراد في الدفاع عن سيرة ابن اسحاق

- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
- المرايا المشوّهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- في الشعر الجاهلي - تحليل وتذوق
- في الشعر الإسلامي والأموي - تحليل وتذوق
- في الشعر العربي الحديث - تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدباء سعوديون
- دراسات في المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبري إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
- "وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
- لكن محمدا لا بواكي له - الرسول يهان في مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربي الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
- يعيش سيبويه، وتعيش لغة القرآن - وكيل وزارة الثقافة يفتح النار على الفصحى وينادي بسقوط سيبويه
- في الأدب وتذوقه
- الفرقان الحق: فضيحة العصر - قرآن أمريكي ملفق
- سهل بن هارون (وكتاب النمر والأنثى) فصول مترجمة ومؤلفة.
- في الشعر العباسي (تحليل وتذوق) .